الآثار والنتائج والدروس المستفادة من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦

د. فطين أحمد فريد علي

لماذا درس "السويس" تحديدا وبعد خمسين عامًا؟ أليست دروس تاريخنا كثيرة؟ والجواب أن "السويس" كانت نقطة تحول رئيسية في التاريخ المصري والعربي الحديث والمعاصر كله. بل إن كثيرًا من الملامح الرئيسية على الخريطة السياسية للعالم كما نعرفه اليوم – جرى رسمها أيام السويس. إن القيمة الأساسية لحرب السويس تتركز في أنها كانت حدًّا فاصلاً بين عصرين.... عصر السيطرة الاستعمارية المستغل، وعصر الاستقلال والتحرر السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي.

وكانت بداية النتائج قطع ذيل الأسد البريطاني وكسر أنيابه فبدأ يلملم بقاياه من مستعمراته ويرحل. كما كانت بداية النتائج أيضًا هزيمة القوى اليمينية الفرنسية فاشتدت عزائم الثورة في المستعمرات – مثل الجزائر وتونس وأفريقيا وغيرها– حتى تحقق الاستقلال.

بل إن ما حدث في حرب السويس كانت له تأثيراته الإيجابية في أقصى الجنوب الأفريقي وفي أقصى القارة الأمريكية الجنوبية وفي آسيا. ولهذه القيمة الكبرى بالغة الأهمية حفرت حرب السويس مكانتها في التاريخ السياسي والعسكري والإنساني للعالم .. وأكد المصريون قدرهم وقدرتهم .. ومن ثم يحتفي بها العالم شرقه وغربه.

وإذا كان العالم يهتم بها ولا تزال دور الصحف ومراكز الدراسات والأبحاث تنشر عنها حتى هذه اللحظة دراسات وكتبًا عن خفاياها ونتائجها وما ترتب عليها فإنه من الأجدر أن تكون هذه مهمتنا نحن المصريين وكل العرب. لأننا نحن الذين تصدينا لهذه الحرب وخضناها ببسالة وشرف وخرجنا منها بنتائج مشرفة ودروسًا عظيمة.

لقد كان درس السويس .. درسًا لا نهاية له، ولا تزال آثاره ونتائجه موجودة في عالمنا حتى الآن. فبعد خمسين عامًا على السويس ونتيجة لتولي الولايات المتحدة الأمريكية توجيه الأمور في الشرق الأوسط، فإن النظرة العامة إلى تحقيق السلام تبدو ملبدة بالغيوم، أكثر منها في أي وقت مضى.

إذا كان هدف التذكر والدراسة هو التحليل الاستراتيجي للحرب من الجوانب والأبعاد السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها. فإننا نحن أول من يهمه – هكذا المفروض – هذا التحليل ونتائجه. ولكننا للأسف الشديد لا نبالي بهذا ونبدو أحيانًا وقد قطعنا الصلة بالماضي وبما أنجزناه فنبدأ من فراغ كما لو كانت الدنيا تولد اليوم "فلا نستفيد بما فعلنا على حين يستفيد الآخرون، ولا نبني فوق ما بنينا فنرتفع بينما يفعل الآخرون. وإذا كنا نتنبه ونتحسب ونعى الدرس لما كان قد حدث ما حدث على الساحة العربية التي تبدو – من دون ساحات العالم ومناطقه – مهانة مجروحة مباحة لكل من يريد أن يغزوها بالسلاح أو يتهجم عليها بالإساءات، أو يشوه تاريخها وزعماءها ويشككها في نفسها.

آثار العدوان

لقد تميزت إجراءات التأميم بالالتزام بالشرعية والقوانين الدولية، بفضل الدراسة المتأنية، والجرأة مع التسلح بالمفاجأة، فلم تأت تلك الإجراءات

كرد فعل محموم، أو للثأر من إهانة التشكيك في سلامة الاقتصاد المصري، وسحب تمويل مشروع السد العالي، بل كانت تعبيرًا عن إرادة شعبيه طال تطلعها إلى التخلص من الهيمنة والكبت الاستعماري، ومن تلك الدولة داخل الدولة، التي كانت تدير قناة السويس في معزل عن السلطة المصرية، وتتدخل في مجالات كثيرة أخرى خارج نطاق عملها، وتبدى من الصلف والاستعلاء ما لا يمكن قبوله. ورغم ما وضعته بعض الدول من عراقيل في طريق الإرادة المصرية التي تولت أمور القناة، فقد سار العمل فيها بصورة جيدة، لم تترك للمؤامرات الأنجلو فرنسية من سبيل، إلا استخدام القوة الغاشمة لإعادة احتلال مصر، وإرجاع عقارب الزمن إلى قرون ولّت وصارت في ذمة التاريخ[١].

كما مثل العدوان الثلاثي أيضًا أشد حروب القرن العشرين ظلمًا وتبجحًا، فكل ما قدمه أطراف العدوان الثلاثة من مبررات لإشعالها، كانت أعذارًا أقبح من الذنب، وكل ما زعموه عن مواقف مصر المعادية للسلام العالمي، أو المخالفة للشرائع والقوانين الدولية، كان أوهى من خيط العنكبوت[٢].

لقد أخطأ المعتدون الحساب، فالانتصار الذي ظنوا أنه بين أيديهم قد أفلت منهم . ومنوا بالهزيمة[٣]. وتغير العالم بشكل حاسم عما كان عليه عندما كانت تتوَّج فيه الممارسات الاستعمارية القديمة بالنجاح. فقد قام النظام الاشتراكي وكانت قوته الرئيسية الاتحاد السوفيتي بدرجة كافية من القوة بحيث تضع حدًا للمعتدين الإمبرياليين. وكان الإنذار الذي وجهه محذرًا من عمليات عسكرية، حسب رأي نهرو، عاملاً حاسمًا أدى إلى قبول فرنسا وبريطانيا العظمى وإسرائيل بوقف إطلاق النار. وحطمت حركة التحرر للشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة مدعومة من قبل الاشتراكية، نظام

الاستعمار الإمبريالي، وجاء عام ١٩٥٥ بمشاركة وفد مصري برئاسة عبد الناصر مؤتمر باندونج الذي شكل علامة بارزة في الوقوف ضد الاستعمار وإقراره لمبادئ التعايش السلمي. ولم تكن الحركة العمالية شأنها شأن بقية القوى الديمقراطية في دول إمبريالية مستعدة للقبول بالعودة إلى الممارسات الاستعمارية القديمة(٤).

وقد أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تحقق فائدة مضاعفة من هذا الوضع. فقد كانت تؤيد بصورة أساسية توجيه ضربة قوية لحركة التحرر الوطني بغية إضعافها، ومن هذا المنطلق أيدت تصرف المعتدين الثلاثة. وكانت تريد في نفس الوقت أن تحتل في الشرق الأوسط مواقع القوى الاستعمارية "التقليدية" وهذه هى السياسة التي بدأت بوضع مخططاتها في عام ١٩٤٣. وهذا ما جعلها تؤكد على تقاليد ديمقراطية خاصة بها وتندد بالاستعمار القديم. ويدخل في إطار هذا النهج ما أعلنه أيزنهاور في رسالة إذاعية بخصوص ما يدور حول قناة السويس، بأن حكومته "لا تعتبر استخدام العنف ضربًا من الذكاء وليس الشكل المناسب لحل أزمات دولية". ولم يستطع المعتدون الثلاثة على هذا النحو الاعتماد على دعم الولايات المتحدة الأمريكية عندما أصبح الوضع حرجًا بالنسبة لهم(٥).

هل كان العدوان الأنجلو فرنسي مفاجئًا لمصر؟

كان عبد الناصر، حتى بعد أن تلقى الإنذار الأنجلو فرنسي ورفضه، غير قادر على أن يصدق أن إيدن وجي موليه على وشك أن يشنا حربًا ضد مصر بالتواطؤ مع إسرائيل، حقيقي أنه كان يعتقد، منذ فترة طويلة شأنه في ذلك شأن الرأي العام العربي الواسع الاطلاع، أن الدول الغربية قد خلقت إسرائيل لتكون بمثابة رأس جسر للحفاظ على وجودها في الشرق الأوسط

وعلى نفوذها في بعض الدول العربية منفردة، كما كان يراوده الشك في وجود صلة مؤكدة بين تعزيز حلف بغداد وما أعقب ذلك من زيادة مفاجئة في عدوانية إسرائيل تجاه جيرانها العرب ولاسيما مصر. ومع ذلك لم يستطع أن يصدق أن تكون أية دولة عربية على درجة من الجنون تحملها على كشف التحالف القائم بين الإمبريالية والصهيونية عن طريق مساعدة إسرائيل وتحريضها على الاعتداء على دولة عربية[٦].

لقد ظل الرئيس عبد الناصر يستبعد قيام بريطانيا أو فرنسا بشن عدوان على مصر، رغم توالى المعلومات من مختلف المصادر، التي يؤكد بعضها قرب وقوعه، بينما يحذر البعض الآخر من احتمال وقوعه. فالملحق العسكري المصري بفرنسا، ثروت عكاشة، حصل على خطة تحركات القوات الفرنسية، قبل وقوع العدوان بعشرة أيام، وأرسلها إلى الرئيس جمال عبد الناصر بخطاب خاص مع الملحق الصحفي بالسفارة عبد الرحمن صادق، قام بتسليمها يدًا بيد للرئيس[٧].

وكذلك الملحق المصري بتركيا زكريا العادلي إمام، الذي حصل على معلومات مؤكدة عن العدوان، وتفصيلات الحشد الأنجلو فرنسي بجزيرة قبرص، بل وفي إسرائيل أيضًا، وذلك عن طريق بعض الأتراك الذين جندهم لهذا الغرض، وقد أرسل تلك المعلومات الثمينة في برقية شفرية يوم ٦ أكتوبر ١٩٥٦ إلى اللواء عبد الحكيم عامر – القائد العام للجيش المصري – تقول: "ستوجه المملكة المتحدة وفرنسا إنذارًا نهائيًا إلى مصر، سوف يعقبه عدوان مشترك بالتعاون مع إسرائيل، وذلك في منتصف نوفمبر ١٩٥٦"[٨].

ثم تبعها الملحق العسكري المصري برسالة سرية أخرى، قدم فيها موعد العدوان، وكان نصها كالآتي: "رغم أن المعلومات المتوفرة لدىَّ تشير إلى أن العدوان سوف يقع في منتصف نوفمبر، إلا أن الظواهر تدل على أنه

سوف يكون قبل نهاية أكتوبر ١٩٥٦". هذه الرسالة سلمت إلى المخابرات الحربية المصرية[٩]، التي ردت عليه بأنه الملحق العسكري الوحيد الذي أبلغها بهذه المعلومات[١٠].

ولكن لم تؤخذ بلاغات الملحق العسكري المصري زكريا العادلي إمام مأخذ الجد والاهتمام الجدير بها[١١]. فلما استشعر الخطر من عدم الاقتناع بما أرسله من معلومات، توجه بنفسه إلى القاهرة يوم ١٩ أكتوبر ١٩٥٦ ليبلغ عبد الحكيم عامر القائد العام، إن إسرائيل أعدت ودربت شخصًا من عائلة الحوت لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر، وإن العدوان الأنجلو فرنسي مؤكد ووشيك الوقوع. ولكن عامر لم يظهر الاهتمام الجدير بهذه المعلومات الخطيرة[١٢]. لذلك طلب مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر الذي لم يبد اهتماما لما سمع، فعاد الرجل كسير الخاطر إلى محل عمله باسطنبول يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦، ليجيش صدره باللوعة مساء ٢٩ أكتوبر عندما وقع العدوان الذي حذر منه[١٣].

هذا عن المصادر المصرية، أما الشواهد الأجنبية فقد كانت كثيرة، ومنها تصريحات أنتوني إيدن بمجلس العموم البريطاني، التي كانت تشير بوضوح إلى عزمه على اتخاذ عمل ضخم ضد مصر، لضمان حقوق بريطانيا[١٤]. كما أكد روبرت منزيس في مقابلته للرئيس عبد الناصر بمنزله بالقاهرة، بعد مؤتمر لندن الأول في ٣ سبتمبر ١٩٥٦، "أن المؤتمر يستبعد استعمال القوة ضد مصر"[١٥].

أما التصريحات التي كانت تصدر من لندن وباريس مغلفة بنبرة تهديد سافر لمصر، فكانت من الكثرة بحيث لم يكن يصح إهمالها، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، ما أعلنته لندن يوم ٣ أغسطس رسميًا عن نقل قوات

فرنسية إلى قبرص لتعزيز القوات البريطانية بالجزيرة، ولكي تكون الدولتان على أهبة الاستعداد لطوارئ أزمة السويس(١٦).

وبعد توجيه الإنذار الأنجلو فرنسي، اعتقد جمال عبد الناصر طوال الأربع والعشرين ساعة الأولى من تسلم مطالب الحكومتين أن الإنذار لا بد وأن يكون خدعة أو حيلة لمساعدة إسرائيل على تحقيق نصر سهل في سيناء وذلك بسحب القوات المصرية بعيدًا عن حدود النقب لحماية بورسعيد والقناة. والواقع أنه كان على يقين، بناء على تقديرات مخابراته، من أن هذا هو الهدف حتى إنه أصدر أوامره على الفور بأن تعود إلى سيناء كثير من وحدات قيادته الشرقية التي كان قد سحبها قبل ذلك بشهرين عندما خشي وقوع هجوم إنجليزي فرنسي مباشر على القناة، ولم يضطر إلى التسليم بأن الإنذار جدي إلا عندما بدأت قاذفات القنابل البريطانية من طراز "كانبيرا" في مهاجمة المطارات المصرية في مساء يوم ٣١ أكتوبر وفاء للتعهد الذي قطعه إيدن على نفسه لبن جوريون بتدمير سلاح الطيران المصري(١٧).

ولما أدرك عبد الناصر من أنه على وشك مواجهة تفوق عسكري ساحق من جانب بريطانيا وفرنسا، فضلاً عن إسرائيل، هرع إلى مقر قيادة الجيش ليطلب من اللواء عبد الحكيم عامر إلغاء كل الأوامر السابقة وإنه يأمر كل الوحدات في سيناء بالانسحاب إلى غرب القناة مع استمرارها في القناة أثناء انسحابها. كما أصدر أوامر بضرورة وضع الخطط الخاصة بحرب العصابات موضع التنفيذ فورًا، وأسند إلى زكريا محيى الدين مسئولية قيادة المقاومة الشعبية بينما تولى كمال الدين حسين قيادة الفدائيين في منطقة القناة. وأخفيت مخابئ الأسلحة في منازل ومساكن اختيرت في كل مدينة كبيرة وصغيرة من مدن الوجه البحري، بالإضافة إلى أجهزة الحرب السرية الأخرى مثل أجهزة الإرسال اللاسلكي وآلات الطباعة، كما وزعت الأسلحة

على أي فرد يتطوع في المقاومة بوساطة عربات الجيش التي كانت تجوب الشوارع حاملة مكبرات الصوت تدعو الناس إلى المساعدة على مقاومة الغزاة الزاحفين[١٨].

كان هذا الأسلوب في تنظيم المقاومة الشعبية، بلا مبالغة، يتسم بالارتجال إلى حد ما وبغير فعالية كما اكتشفت القوات البريطانية في وقت لاحق في بورسعيد، كما لم تكن جماعات الفدائيين أسوأ تنظيمًا من الجيش. فعلى الرغم من شحنات الأسلحة الروسية كانت القوات النظامية المصرية غير مستعدة تمامًا لخوض حرب، إذ كان يستخدم حتى الآن ما يقرب من خمسين دبابة فقط من بين مائتي دبابة روسية جديدة، ولم يكن معدًا للتشغيل من المائة طائرة مقاتلة من طراز ميج غير حوالي ثلاثين طائرة، ومن الخمسين قاذفة طراز اليوشن سوى اثنتي عشرة طائرة، وكان معظم الطيارين وأطقم الدبابات الذين سيقومون باستخدام هذه الأسلحة الجديدة ما زالوا يتدربون على استخدامها في مدارس تدريب في الاتحاد السوفييتي. ومن ثم كان سلاح الطيران المصري الجديد هدفًا أكيدًا لطائرات الكانبيرا البريطانية فلم ينج من الثلاثين طائرة اليوشن التي نجحت في الفرار إلى الأقصر سوى اثنتي عشرة طائرة تمكنت من مواصلة الطيران إلى السعودية، أما الثماني عشرة طائرة الأخرى فقد هاجمتها ودمرتها غارات جوية بريطانية أخرى على الصعيد[١٩].

ومما زاد من قلق عبد الناصر أنه في الوقت الذي كان فيه يفكر في الدمار الذي لحق بسلاحه الجوى السوفييتي، جاءته رسالة من خروشوف، عن طريق الرئيس السوري – شكري القوتلي- الذي كان وقتئذ في زيارة لموسكو، تنبئه صراحة أن السوفييت لن يغامروا بالتورط في حرب عالمية ثالثة من أجل قناة السويس، وأنه إذا كان لا بد من خوض مثل هذه الحرب

فإن الروس سيختارون مكانًا وزمانًا أكثر ملاءمة، وفي نفس الوقت أشار خروشوف بضرورة أن تعقد مصر صلحًا بأسرع ما يمكن مع بريطانيا وفرنسا لأن قوتهما المتفوقة لن يجدي معها القيام بمزيد من المقاومة، وأن روسيا سوف تقدم لها كل تأييد أدبي لازم إلا أنها لا تستطيع تقديم أية مساعدة أخرى في هذه المرحلة[٢٠].

أصابت صراحة خروشوف القاسية عبد الناصر بهزة عنيفة حتى إنه بادر بوضع البرقية في خزانته الخاصة، وخوفًا من إضعاف روح وزرائه المعنوية في هذه اللحظة الحاسمة لم يطلع أقرب المقربين إليه على فحواها[٢١]، إلا أن محمود رياض يروى مقابلة الرئيس السوري شكري القوتلي يوم أول نوفمبر ١٩٥٦ للقادة السوفييت – خروشوف وبولجانين ومارشال زوكوف بصورة أخرى حيث يقول: روى لي شكري القوتلي تفاصيل المحادثات التي أجراها مع القادة السوفيت وقال إنهم أبلغوه أن الاتحاد السوفيتي سيقدم أقصى معونة ممكنة لمصر بما في ذلك الأسلحة والفنيين، إلا أنهم غير مستعدين لإرسال قوات عسكرية خوفًا من أن يؤدى ذلك إلى قيام حرب عالمية[٢٢]. "وأبرقت لعبد الناصر برسالة القوتلي، وقد احتفظ بما فيها سرًا حتى يبقى عالقًا في الأذهان استعداد الاتحاد السوفيتي للتدخل العسكري، خاصة بعد أن صدر الإنذار السوفيتي. وقد صدر الإنذار في منتصف ليلة ٥ نوفمبر على شكل رسالة من بولجانين إلى إيدن وموليه يتضمن إمكانية استخدام الصواريخ. كما وجه بولجانين رسالة عنيفة إلى بن جوريون أشار فيها إلى أن اشتراك إسرائيل في العدوان يهدد وجودها كدولة. وفى ١١ نوفمبر، صدر في موسكو إعلان باستعداد الاتحاد السوفيتي إرسال متطوعين لإنهاء الاحتلال". ويلاحظ أن تأييد السوفييت كان يتصاعد كلما تبين لهم تصميم مصر على المقاومة، والتأييد الجاد من الدول العربية"[٢٣].

كانت الأهداف الاستراتيجية للحرب بالنسبة للإسرائيليين تتلخص في التوجيه الاستراتيجي الذي أعطاه بن جوريون إلى رئيس أركان الجيش الإسرائيلي موشي دايان بشأن ضرورة القضاء على قواعد الفدائيين في سيناء، وفتح الممرات المائية وخصوصًا قناة السويس ونزع سلاح سيناء، وإسقاط "الديكتاتور" هكذا بالحرف الواحد، وتأمين مشارف إيلات بما فيها طابا[٢٤].

أما الهدف الرئيسي للعملية الأنجلو فرنسية "الخطة موسكيتير المعدلة النهائية" فكان تحطيم ناصر. ويذكر انتوني ناتنج – وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية الذي استقال قبل الغزو مباشرة – أنه سأل إيدن ما الذي ينوى أن يفعله إذا ما أفلح في تدمير ناصر؟ من الذي سيضعه محل ناصر؟! وأبديت رأيي في أنه على حد علمي لا يوجد الآن جنرال زاهيدي "جاهز" في مصر في ذلك الوقت ليحل محل عبد الناصر (زاهيدي هو الذي خلف مصدق بعد عملية بارعة من كيرمت روزفلت رجل المخابرات الأمريكية). ولكن إيدن رد على محتدًا: "أنا لا أريد زاهيدي في مصر" فقلت له "إذن فأنت تريد أن تعم الفوضى على أية حال". "لا يهمني.. لا يهمني.. إن الغرض الأساسي هو التخلص من ناصر"[٢٥].

وهكذا فإن الأمر كله كان التخلص من عبد الناصر .. وأنه لمن المذهل الذي لا يستطيع العقل أن يستوعبه أن دولتين مثل بريطانيا وفرنسا أقدمتا بإصرار على هذه المغامرة التي هزت العالم بعنف دون أي اعتبار لأي شيء إلا الهدف الذي يريدانه. هذه هى حقيقة موقف الدولتين دون أن يضعا أي اعتبار لأي شيء ولا تفكير في النتائج التي قد تحدث .. كل ما تريدانه هو التخلص من ناصر. أما كيف يحدث ذلك .. وما الذي سيحدث بعد ذلك فلم يكن هناك أدنى حساب له أو تفكير فيه.. لم تكن لديهما أية خطة

أيًا كان شأنها.. لم يفكر أحد في كيفية التعامل مع الموقف بعد ذلك.. ولم يتساءل أحد ماذا نفعل؟.. هل سنتحمل وزر ١٨٨٢ أخرى؟ هل سيعود اللورد كرومر مرة أخرى ليستقر في السفارة البريطانية بالقاهرة؟ ماذا ستكون النتيجة؟ لم يدر شئ من هذا بتفكيرهم.. لم تكن هناك أية خطة أيًا كانت لما سيحدث.. كل ما في أيديهم كان خطة طوارئ في إطار خطة موسكيتير لاحتلال القاهرة والدلتا.. وأبعد من ذلك لم يكن هناك أي تخطيط على الإطلاق[٢٦].

حنكة سياسية وشطط عسكري

بعد أن سكتت المدافع في الساعات الأولى من صباح ٧ نوفمبر ١٩٥٦ كانت نتائج الحرب واضحة، فقد فقدت مصر سيناء وبورسعيد، كما دمرت قواتها الجوية بصورة تكاد تكون تامة، علاوة على ما تحملته الوحدات البرية من خسائر خلال انسحابها من شمال سيناء، واستسلام بعض العناصر العاملة والحرس الوطني المرابطة في شرم الشيخ وغزة[٢٧].

وكان المتداول في القيادة العامة المصرية، خلاف الرئيس جمال عبد الناصر مع المشير محمد عبد الحكيم عامر حول إدارة المعركة. وأكد ذلك ما أفضى به الرئيس عبد الناصر لرفيقه عبد اللطيف البغدادي – عضو مجلس قيادة الثورة – ليلة ٤/٥ نوفمبر، وهما في طريقهما إلى الإسماعيلية، حيث شاهد قصف القوات الجوية البريطانية لقواتنا المنسحبة من شرق سيناء. ولم يملك الرئيس عندئذ إلا أن يعبر عن إحباطه بقوله: "إن جيشي قد هزمني!"[٢٨].

وفي ١٠ نوفمبر ١٩٥٦ عرض المشير عامر استقالته من منصبه فور تحقيق انسحاب القوات البريطانية والفرنسية، إلا أن الرئيس عبد الناصر

استطاع أن يتجاوز أزمة الثقة وأن يسوى الخلاف بينهما[٢٩]. وفي يوم الثلاثاء أول يناير ١٩٥٧، قدم عبد الحكيم عامر استقالته لجمال عبد الناصر، إلا أن مسألة الاستقالة قد سويت يوم الأربعاء ٢ يناير ١٩٥٧. وفي يوم ٥ يناير ١٩٥٧ قاما معًا بزيارة الجرحى للقضاء على الشائعات[٣٠].

وعندما يجرى تقييم أداء أدوات الصراع في المعركة، قد لا يملك الكثيرون سوى الادعاء بأن القوات المسلحة المصرية قد تلقت ضربة عنيفة خلال عشرة أيام من القتال. وبكل المقاييس العسكرية، فمن الضروري أن نعترف بأن قواتنا المسلحة لم تكسب المعركة العسكرية التي خاضتها، ولكن من الإنصاف أيضًا أن نقول إنها لم تخسرها. ودون ادعاء مبالغ فيه، نستطيع أن نسجل حقيقة أن "الجيش المصري" لم يهزم، وأن أداءه قبل وخلال معركة العدوان الثلاثي كان عاملاً هامًا في تحقيق القيادة السياسية لأهدافها الوطنية[٣١]. ففي مرحلة الاقتراب من الحرب، استطاعت قيادة القوات المسلحة أن تحسن تقدير الموقف وأن تطور تقييمها مع تتابع الأحداث – غير المنظورة – على الجانب الآخر، حتى كادت مراحل تخطيطها للدفاع تتوافق يومًا بيوم مع مراحل تخطيط قيادة العدوان الثلاثي[٣٢].

ولقد وضعت القيادة العامة وهيئات أركان الحرب بناء على ذلك خطط المواجهة، ورتبت أوضاع القوات على جبهتي القتال في سيناء وقناة السويس بما فيها الدلتا، وأجرت تحركات واسعة النطاق للقوات المقاتلة. واستجابت التشكيلات المقاتلة لمطالب التخطيط، وساعدت كفاءة عناصره الفنية والإدارية على التغلب على مشكلات مناطق الحشد والانتشار. ولقد فرض هذا الأداء على قيادة الحلفاء إبطاء عجلة الحرب، والحد من اندفاعها نحو شن عملية حربية خاطفة[٣٣]. وعندما نشبت الحرب بهجوم إسرائيل استبعدت

القيادة السياسية احتمال وقوع هجوم آنجلو فرنسي، وركزت على التصدي لإسرائيل، ونقل مركز الثقل الاستراتيجي للقوات المصرية إلى سيناء(٣٤).

وفي تقديرنا أن هذا القرار كان سابقًا لأوانه، ففي مثل تلك الظروف لم يكن هناك ما يبرر في مساء ٢٩ أكتوبر، وبخاصة بعد الإنذار البريطاني-الفرنسي في مساء ٣٠ أكتوبر، استبعاد التدخل الغربي. وطالما بقيت القوات الأنجلو فرنسية عبر الشاطئ الشمالي.. فقد كان من الحكمة أن نمنح أنفسنا فسحة من الوقت نتبين خلالها نواياها قبل أن نلقى بثقلنا في اتجاه أو آخر. وحتى يحين الوقت المناسب، كان علينا أن نتخذ القدر المحدود من الإجراءات لدعم دفاعاتنا ولمنع الموقف من الانقلاب(٣٥).

ومع ذلك، فقد استطاعت القيادات العسكرية وتشكيلاتها المقاتلة – استجابة إلى تقديرات القيادة السياسية – أن تقوم بمناورات هامة في فترات زمنية قصيرة، لكي تتلاءم وما تتطلبه المواقف الاستراتيجية الجديدة. ففي خلال ٤٨ ساعة استدارت قواتنا شرقًا للتدخل في سيناء، ثم قامت بالانسحاب منها غربًا إلى منطقة القناة، رغم ظروف السيادة الجوية للقوى المعتدية(٣٦).

ولقد ساعد ذلك على إبطاء عمليات قوات العدوان، فقد استطاعت قواتنا أن تكسب للقيادة السياسية أيامًا، بل ساعات ثمينة، سمحت بتعبئة وإقحام تأييد دولي ضخم للقضية المصرية. ولم تكن هذه القوى السياسية التي ألقت بثقلها في المعركة إلى جانب مصر، لتقبل عليها لولا ثقتها في أنها تخطو فوق أرض صلبة يمثلها إصرار القيادة العليا للبلاد وفعالية قواتها المسلحة وتصميم شعبها على مواصلة القتال(٣٧).

ومن الضروري أن نعيد تأكيد موقف القوات المصرية على الجبهة الشرقية، إذ لا يمكن الادعاء بهزيمتها أمام "الهجوم" الإسرائيلي خلال معركة سيناء. ففي المرحلة الافتتاحية للعمليات، اكتفت القوات الإسرائيلية بتنفيذ

عملية محدودة توفر المبرر لبريطانيا وفرنسا لإصدار إنذارهما مساء ٣٠ أكتوبر أما القوة الإسرائيلية الرئيسية فقد انتشرت أمام مواقع القوات المصرية في شمال شرق سيناء في انتظار بدء الهجوم الجوى للحليفتين. ولما لم يبدأ الهجوم حتى ظهر ٣١، رأي بن جوريون سحب قوات المظلات من ممر متلا خشية تدميرها، لولا تدخل موشي دايان الذي أقنع رئيس الوزراء الإسرائيلي باستبقائها في مراكزها على أن تلتزم بالدفاع المرن(٣٨).

وعلى أثر تدخل سلاح الطيران البريطاني–الفرنسي، بادرت القوات المصرية في شرق سيناء بالتخلي عن مواقعها الدفاعية. وفوجئ الإسرائيليون في اليوم التالي بالمواقع وقد أخليت أثناء الليل. ولم تحاول القوات الإسرائيلية الاتصال بالقوات المصرية المنسحبة والضغط عليها، تاركة هذه المهمة للقوة الجوية البريطانية–الفرنسية(٣٩).

لم تحقق الحرب لمصر انتصارًا عسكريًا، ومن الناحية الأخرى لم تكن فشلاً على الصعيد العسكري. فقد أدت القوات المصرية واجبها على أحسن وأسوا ما يكون في مواجهة الإسرائيليين، وكان بوسعهم الادعاء – بصدق ولهم بعض التبريرات في ذلك – بأنهم أرغموا على الانسحاب من جراء التهديد الأنجلو – فرنسي وأن الإسرائيليين لم يهزموهم، كما كان بوسعهم في نفس الوقت الذي طردوا فيه من بورسعيد وبور فؤاد، أن يفاخروا بأن مقاومتهم للأعداد الغفيرة والتكنولوجيا المتفوقة قد أعاقت الغزاة الأوروبيين وعجزوا عن تحقيق أهدافهم العسكرية(٤٠).

وعندما توقفت العمليات في فجر ٧ نوفمبر، كانت قيادات القوات البرية المصرية في مراكزها تمارس مسئولياتها، وعلى استعداد لإقحام تشكيلات أساسية حول الإسماعيلية وفي داخل الدلتا، فيما لو استمر القتال. وكان بمقدورها بذلك أن تكسب للقيادة السياسية بضعة أيام أخرى ثمينة(٤١).

على خلاف الجانب السياسي الذي مارسته إدارة مصر بحنكة ومهارة وضبط النفس، بما حقق لها نصرًا سياسيًا ضخمًا، وترك أطراف العدوان يقبضون الريح في ختام القتال .. فإن الجانب العسكري وما تضمنه من إدارة المعارك على الجانب المصري بأوجهها المختلفة وقع في أخطاء كثيرة، وعثرات عديدة شكلت مجالاً واسعًا للنقد، بما دفع القيادة العسكرية العليا إلى إسدال ستار من الكتمان عليها، وحجبها خلف ذلك النصر السياسي الذي عمدت إلى استثمار نتائجه لصالح الأداء العسكري بغير وجه حق(٤٢).

ويأتي على رأس قائمة تلك الأخطاء العسكرية في المجال البري، كثرة تغيير أماكن الواحدات والتشكيلات بما أرهق أفرادها وأضر بأسلحتها ومعداتها، بالإضافة إلى الميل إلى تفتيتها، ثم نشر أجزائها في أرجاء المسرح، بما يحرمها من ميزة العمل في قوة قتالية واحدة، يمكنها من إبراز كامل كفاءتها الميدانية على أفضل الصور، فضلاً عن تحقيق التعاون الوثيق بين مختلف أجزاء تلك القوة، بفضل سابق معرفتها ببعضها البعض من واقع العمل المشترك معًا في التدريبات والمناورات السابقة(٤٣).

وفيما يختص بأوامر الانسحاب التي أصدرتها القيادة العامة، لسرعة إخلاء سيناء من القوات المصرية .. فعلى قدر ما كانت ضرورية من وجهة النظر الاستراتيجية لتجنب قطع مؤخرة تلك القوات بالغزو الأنجلو فرنسي الوشيك، بقدر ما كانت مجافية من ناحية التكتيك للأسلوب الميداني المعتمد(٤٤). فالانسحاب الناجح يتم وفق خطة لا تهمل الروح التعرضية كلية، وتحرص على تكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر، مع استنفاد جهده ووقته بالهجمات المضادة المفاجئة، وبزرع الألغام والشراك الخداعية والكمائن في طريقه، وبتدمير وقفل المضايق والمحاور التي تخترق سلاسل الجبال والتلال، وبالمؤخرات الجسورة التي تنهك العدو، وتوقع به الخسائر وتعطله

أطول مدد زمنية ممكنة، وقد أهمل أمر الانسحاب الذي صدر لقوات سيناء ليلة ٣١ أكتوبر كل ذلك. كما اتبعت تلك القوات أسلوبًا أقرب إلى التقهقر غير المنظم، الذي لا علاقة له بشكل معركة التخلص من القتال المعتمد في كافة مدارس الحرب، والذي يتم على وثبات متتالية للخلف(٤٥).

أما عن القوات الجوية .. فقد كان تحطيم الطائرات المصرية، وهي جاثمة على الأرض دافعًا إلى عقد الدراسات المخلصة لاستخلاص الخبرة والخروج بالدروس المستفادة التي تمنع تكرار هذا الحدث الجلل مرة أخرى. فلما لم تأخذ هذه التجربة المريرة حقها من اهتمام المسئولين، تكرر وقوعها وبصورة أشد إيلامًا وأسرع زمنًا في مستهل الجولة الثالثة في حرب الخامس من يونية ١٩٦٧(٤٦).

ولقد ترتب على هذا المسلك الذي حاولت الزعامة السياسية المصرية التدخل لمعالجة بعض أسبابه دون طائل، ومنها تغيير القادة العسكريين الذين أظهروا فشلهم في إدارة القتال – أن استفحلت الأخطاء على مدى السنوات التالية، حتى ظهرت على الملأ في صورتها القبيحة يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧، وما تلاه من أيام غبراء(٤٧).

ذرائع سريعة العطب

قامت حبكة مخطط التواطؤ الثلاثي على ذريعة مهترئة، وفرتها إسرائيل لحليفتيها كيما يبررا تدخلهما بقواتهما المسلحة، وبذلك اندرج هذا العدوان في قوائم حروب الذرائع(٤٨). ورغم ما تجمع للاستعمار الأنجلو فرنسي من خبرة واسعة سابقة في أساليب خلق وافتعال مثل تلك الذرائع، ومنها ذريعة الصفعة الشهيرة التي كالها داي الجزائر للفرنسي الوقح الذي تجاوز معه حدود الأدب، فاتخذتها حكومة فرنسا سببًا لاحتلال الجزائر، وكذا ذريعة المالطي وتلك المشاجرة التي حدثت بينه وبين صاحب الحمار في

الإسكندرية لاختلافهما على الأجرة، التي كانت سببًا في احتلال مصر عام ١٨٨٢، فإن ذريعة عدوان ١٩٥٦ جاءت شديدة التهافت هذه المرة، ثم راحت تتغير وتتبدل، كلما انكشف أمرها، حتى حولت تراجيديا العدوان إلى كوميديا هزلية، طبعت بسمة السخرية على شفاه العالم، وأثبتت أن الذرائع بضاعة سريعة العطب.

لقد تفتق ذهن أطراف التواطؤ الثلاثي عن أول ذريعة في شكل "حجة الفصل بين المتحاربين على مقربة من قناة السويس، حرصًا على سلامتها واستمرار قوافل الملاحة فيها". وبمجرد سقوط هذه الذريعة، تدارك إيدن ومولليه الأمر وقالا أن الهدف من التدخل هو حماية أرواح الأجانب، وسلامة السفن التي تعبر قناة السويس.. وأخذت الذرائع تسقط واحدة تلو الأخرى(٤٩).

خرجت فرنسا من تجربة السويس تبحث عن بديل. ولم يمض عام إلا وسقطت الجمهورية الثالثة وعاد "ديجول" يؤسس الجمهورية الرابعة وهو يدرك أن فرنسا لم تعد تستطيع أن تعتمد على الرادع النووي الأمريكي إذا كان لها أن تحتفظ باستقلالية قرارها السياسي، وهكذا ولدت قوة الضرب الفرنسية المستقلة ووراء ذلك ظهرت احتمالات أوروبا الغربية كقوة نصف مستقلة على الأقل(٥٠). إن الدرس الذي استوعبته فرنسا استوعبته الصين أيضًا وهكذا راحت بدورها تسعي إلى دخول النادي النووي لكي تصبح قوة عظمى بإمكانياتها الذاتية(٥١).

وأحدثت السويس تحولاً هامًا في سياسة إسرائيل فقد راحت من يومها توجه اهتمامها شطر النجم الأمريكي البازغ وتلحق نفسها به. وكان ذلك بداية ظهور دور الشرطي المحلي الذي كررت الولايات المتحدة نموذجه بعد ذلك كثيرًا في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وإن بقيت للشرطي الإسرائيلي مكانة مميزة لأسباب عديدة آخرها أنه أصبح شرطيًا نوويًا – لأول مرة في تاريخ الشرطة(٥٢).

الحنكة السياسية تسبب ورطة عسكرية

فرضت الحبكة السياسية للعدوان الأنجلو فرنسي على جهاز التخطيط العسكري أن يوجه الغزو البحري إلى ساحل بورسعيد. وكانت تلك هى المرة الأولى التي يختار فيها رأس شاطئ، ليس له مخرج سوى عنق زجاجة بالغ الطول قليل العرض، بما جعل القوات المكلفة بالانطلاق من خلالها، نحو الإسماعيلية والسويس، تقع في ربكة شديدة لم ينقذها إلا قبول حكومتا المملكة المتحدة وفرنسا إيقاف إطلاق النار، بعد منتصف ليلة ٧/٦ نوفمبر ١٩٥٦[٥٣].

وكان الجنرال ستوكويل قد اعترض على اختيار شاطئ بورسعيد لعملية الغزو البحري بقوله: "إنه أسوأ مكان لعملية غزو، فلا هو يصلح للهجوم، ولا للدفاع"[٥٤]. أما القائد العام الجنرال تشارلز كيتلي.. فقد شبهه "بعنق الزجاجة الطويل، الذي يتعين على المرء أن يحشر فيه يده، ليغترف ما في بطن الزجاجة من رحيق"[٥٥].

وبينما اجتمعت كلمة العسكريين الأنجلو فرنسيين على تفضيل ساحل غرب الإسكندرية لشن العملية نظرًا لأنه الأكثر مناسبة، والأقرب إلى القاهرة، والأفضل لتحقيق هدف الغزو، كان النزول فيه يتعارض مع مزاعم الذريعة التي سوف تسقط للتو إذا ما نزل الغزو بغير ساحل بورسعيد، وهو ما دفع السياسيون إلى الإصرار عليه ليلقوا بقوات الغزو في ورطتين: ورطة القتال في المناطق المبنية، وورطة الدخول في عنق الزجاجة جنوب بورسعيد[٥٦].

ومع التسليم بأن الخطط الحربية يجب أن تنصاع للقرار السياسي بحكم أن الحرب امتداد للصراع السياسي بوسائل أخرى، فإنه يتعين على الزعامة السياسية بالمقابل ألا تورط القيادة العسكرية في وضع يتعارض مع المنطق

العسكري، أو يعرض قواتها المقاتلة لمواقف شديدة التعقيد، على نحو ما واجهته القيادة المشتركة للعملية موسكيتير المعدلة النهائية، عندما فرضت عليها قيادتها السياسية رأس شاطئ بورسعيد، لتنفيذ عملية الغزو البحري رغم اعتراض جميع القادة العسكريين عليه، والتركيز على غرب الإسكندرية بوصفه الأفضل والأضمن لنجاح الغزو بأقل تكلفة وأسرع وقت(٥٧).

ولقد أثارت تلك الاختلافات في الرأي بين السياسيين والعسكريين جدلاً حادًا، لا يزال يتردد صداه داخل مؤسسات الأمن الوطني، ومراكز اتخاذ القرارات، عما إذا كان على العسكريين الطاعة العمياء، وأن ينزلوا على وجهة النظر السياسية مهما كانت خطأ من وجهة نظر فن الحرب، أم أن من واجبهم أن يعترضوا عليها، ويوضحوا مغبتها، ثم يصروا على وجهة نظرهم، حتى يقنعوا السياسيين بها أو يتنحوا هم عن القيادة(٥٨).

وأظهرت الأفعال الخرقاء التي ارتكبها إيدن، سهولة الالتفاف على المؤسسات الديمقراطية. وقد أشار اللورد مونتباتن إلى هذا الوجه المحزن والمفزع لأزمة السويس فيقول: "لقد أذهلتني رؤية ما يمكن أن يفعله رجل متعنت واحد إذا كان يشغل منصب رئيس الوزراء. فهو لم يسمح أبدًا للبرلمان بأن يعرف ماذا يجرى. ولم يتح ذلك حتى لمجلس الوزراء. وكنا عاجزين عن الاطلاع على ما يحدث. وقد فشلت أنا نفسي في هذا، نظرًا لأن رؤساء الأركان لا يعرفون ما يدور حولهم. لكن واحدًا أو اثنين من هؤلاء الوزراء كان ينبغي أن يعلن ما يعرف: مونكتون، وماكميلان نفسه، وسلوين لويد، الرجل الذي تفاوض حول التواطؤ، وهو ما لم يفعله أي منهم. والنتيجة أن إيدن تمكن من السير قدمًا في تلك العملية بناء على قراره وحده فقط بينما نحن نعتقد أننا نملك ديمقراطية راسخة لا تسمح بوقوع هذا"(٥٩).

ومنيت العمليات العسكرية والسياسية لبريطانيا وفرنسا بالفشل، رغم الدرجة العالية من كفاءة قوتهم البرية والبحرية والجوية. فقد حالت مجموعة من الظروف دون الإفادة من تفوقها القتالي الواضح على المصريين، وفشلت في تحقيق أهدافها العسكرية، أما على الصعيد السياسي فقد كانت هذه اللهفة الاستعمارية للعودة لاحتلال مصر كارثة على بريطانيا وفرنسا نتج عنها سقوط حكومات هذه الدول(٦٠).

المطرقة والبندقة

الاقتصاد في المجهود أحد مبادئ الحرب التسعة المعتمدة في كافة المدارس العسكرية المعاصرة، ومن أحكام هذا المبدأ الهام ألا تحاول كسر بندقة بمطرقة ضخمة، حتى لا تستنفد جهدًا أكبر مما تستحقه تلك البندقة، التي سوف تسحق تمامًا فلا يبقى لها نفع(٦١).

لقد كان هيكل الدفاع عن ساحل ومدينة بورسعيد من الضعف وعدم الاستعداد بالقدر الذي لم يكن يستلزم من القيادة الأنجلو فرنسية كل تلك النيران والقوات الضخمة، التي حشدتها لتستولي على رأس شاطئ فيه(٦٢). كما أن تلك القيادة وقعت بنزولها في بورسعيد في خطأ تعبوي كانت له عواقب تكتيكية خطيرة، اضطرتها إلى القتال في مناطق مبنية، ثم حشد قواتها اللاحقة داخل شريحة أرضية ضيقة ليس لها إلا مخرج واحد، عبارة عن عنق زجاجة يضيق في بعض أجزائه، حتى لا يتجاوز بضعة أمتار وتحف به المياه من الجانبين: قناة السويس شرقًا، وترعة المياه العذبة، وبحيرة المنزلة غربًا(٦٣). وكشف حجم النيران التي وجهها العدوان الأنجلو فرنسي على مصر عن مقدار التخبط، الذي وقع فيه أنتوني إيدن بين الأمل في أن ينجح هذا القصف العنيف في إثارة جماهير شعب مصر ضد زعامتها

السياسية لتسقطها، والخشية من أن تثير تلك الوحشية الدموية الرأي العام العالمي بدرجة أكثر حدة وإيجابية، بما يفقد المملكة المتحدة وفرنسا احترام العالم(٦٤).

والواقع أنه بعد أن نجحت الضربة الجوية الأنجلو فرنسية الشاملة في تحطيم الغطاء الجوي المصري، ثم تحطيم دفاعات ساحل الغزو المختار في فترة التمهيد النيراني التالية.. فإنه لم يعد هناك مبرر لاستمرار ذلك القصف الجوى العنيف طيلة الأيام السبعة، فيما بين مساء ٣١ أكتوبر وصباح ٦ نوفمبر ١٩٥٦، إلا أن يكون القصد منه هو مجرد تغطية الفترة الزمنية التي استغرقتها رحلة أساطيل الغزو، فيما بين مواني الإقلاع في الجزائر ومالطة وقبرص، وحتى الوصول إلى ساحل بورسعيد، وهو مبرر يتعارض مع المنطق العسكري والإنساني السليم(٦٥).

ورغم قيام القوات البريطانية في الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ١٩٥٦ بأسر العميد أركان الحرب صلاح الموجي – رئيس أركان الجبهة الشرقية المصرية وقائد قوات بورسعيد – الذي كان يقاتل في بسالة في الجبهة الأمامية رفض إصدار أمر بالاستسلام. وفي الساعة الحادية عشرة صباحًا نزل الجنرال ستوكويل والجنرال بوفر والأير مارشال بارنيت إلى شاطئ بورسعيد من سفينة القيادة سعيًا للتفاوض مع أسيرهم العميد صلاح الموجي بشأن استسلام المدينة بلا قيد أو شرط، غير أن هذا القائد – الذي أعلن أنه لم يعد في مركز يخول له صلاحية القيادة – رفض إصدار أمر بالاستسلام، وبذلت محاولات أخرى في هذا الشأن، عن طريق القنصل الإيطالي، للتفاوض بهدف الاستسلام، غير أنها باءت بالفشل أيضًا(٦٦).

نقطة التحول

لقد شكل العدوان الإسرائيلي في جولة صيف ١٩٥٦، نقطة التحول بالنسبة للقوات المسلحة الإسرائيلية من مستوى خوض الإنجازات الانتقامية، في ميادين القتال إلى شن العمليات الحربية في مسارح الحرب، وكان وراء هذا التحول الكبير عدة مؤثرات نجملها فيما يلي(٦٧):

١- إن الزعامة السياسية الإسرائيلية، بعد أن أيقنت أن التواطؤ كان الصخرة التي تحطم عليها العدوان، وأجبره على إعادة كل ما إكتسبه عقدت العزم على أن تشن الجولة التالية بالقدرات القتالية الذاتية، دون تواطؤ خارجي سافر.

٢- أن القيادة العسكرية الإسرائيلية بذلت جهدًا ضخمًا في دراسة حرب العدوان الثلاثي من جميع جوانبها السياسية والعسكرية والاقتصادية والمعنوية، وحصرت نقاط القوة والضعف، كما أنها استغلت الأشهر الأربعة التي ظلت تحتل خلالها شبه جزيرة سيناء حتى مارس ١٩٧٥ في دراسة طبوغرافية الأرض، ورسم خرائطها، توطئة لتطبيق مأثورة "هانيبعل" الشهيرة: "دع الأرض تقاتل معك وتذود عنك" في الجولة التالية.

٣- إن تلك القيادة العسكرية راجعت مستوى أداء ضباطها في الميدان، بدءًا بقادة الكتائب، حتى قادة المناطق العسكرية الإسرائيلية، فأنهت خدمات من ثبت عدم صلاحيتهم للقيادة الميدانية وهم لم يكونوا قلة، وركزت اهتمامها على زيادة كفاءة من أثبت منهم قدرة عالية على سرعة التصرف في المواقف الصعبة، مع التحلي بالروح الهجومية، والقدرة على قيادة المجموعات الكبيرة من الجنود. وتكفي النظرة على قوائم قادة مجموعات العمليات، ثم قادة اللواءات في جولة صيف

١٩٦٧، لنجد أنهم كانوا أبرز قادة اللواءات والكتائب في جولة خريف ١٩٥٦[٦٨].

٤- وقد حقق جيش الدفاع الإسرائيلي بفضل تلك الجهود نقطة التحول سالفة الذكر، التي كانت قد دفعت قائدين من أبرز أفراد المؤسسة العسكرية الإسرائيلية إلى إبداء شكهما قبل عدوان خريف ١٩٥٦، في أن يكون جيشهما قادرًا على تنفيذ خطة "قادش الهجومية"، رغم ما سوف يقدمه التواطؤ الأنجلو فرنسي من مساعدات ضخمة، أبرزها تحقيق السيادة الجوية المطلقة في سماء المسرح الصحراوي المكشوف في جزيرة سيناء[٦٩].

ويذكر الجنرال موشي دايان – رئيس الأركان العامة لجيش الدفاع الإسرائيلي إبان حرب ١٩٥٦: "أننا سندخل معركة سيناء ووراءنا عدد كبير من العمليات الانتقامية، وصل فيها الجيش إلى مستوى قياسي في القدرة والاستعداد بالوحدات الصغيرة، فهل نحن مخطئون الآن في توقعنا بأن جنودنا سوف يحققون في العمليات الحربية القادمة مستوى قتال ممتاز مثل ما فعلوه في العمليات الانتقامية؟ إنني آمل أن نستطيع أن نفعل ذلك"[٧٠].

ويتساءل عيزرا وايزمان – قائد قاعدة حاتور الجوية – عن نفس الأمر، ولكن بتعبير مختلف فيقول: "لقد راودني الشك في قدرة جيشنا على إنجاز تلك المهام الضخمة، فرحت أسأل نفسي: هل يحق لنا اعتمادًا على ما أنجزناه عام ١٩٤٨، أن نطمئن على قدرتنا على فعل نفس الشيء مرة ثانية دون أن نضع في اعتبارنا الظروف المعاكسة والقيود الشديدة، التي كانت تكبل أيدي أعدائنا عام ١٩٤٨؟" [٧١].

أما الجنرال حاييم لاسكوف – قائد مجموعة العمليات ٧٧ التي هاجمت محور رفح العريش، والذي خلف موشي دايان في منصب رئيس الأركان

العامة سنة ١٩٥٨- فقد كتب نقدًا عن حملة سيناء، جاء فيه: "أننا حاولنا بناء أسطورة حول جيش إسرائيل وفكرة أنه لا يهزم. وأردنا أن يكون لهذه الأسطورة تأثير ضخم على معنويات الجيش والشعب. وقد أضاف الجنرال دايان إلى ذلك دعاية شخصية لذاته، على أساس أن وجود قائد له سمعة أسطورية، هو جزء من أسطورة الجيش نفسه، ولكن الخطر يجيء إذا صدقنا هذه المقولة، وخلطنا بين الدعايات التي نروجها للآخرين، وبين الحقائق التي يجب أن نضعها نصب أعيننا"(٧٢).

ويستطرد حاييم لاسكوف قائلا: "فخطة قادش التي وضعت عام ١٩٥٥ لم تختبر في أي مناورة عامة قبل تنفيذها في أكتوبر ١٩٥٦. ولا ينبغي أن تؤخذ العملية مقياسًا لكفاءة القيادات، لأن رئيس الأركان العامة دخل المعركة وهو يعلم سلفًا أن القوات الأنجلو فرنسية سوف تقوم بالدور الرئيسي في الحرب، بما أتاح له أن يتخذ موقفًا مريحًا يمكنه من الانتظار. ولهذا كان تأكيده على القادة المرؤوسين ألا يتورطوا في قتال رئيسي مع جيش مصر، قبل أن يحدث التدخل الأنجلو فرنسي. وعلى سبيل التأكيد فإن الطيران الإسرائيلي، لم يقم بشل فاعلية طيران مصر، على نحو ما كان يتعين عليه فيما لو حاربت إسرائيل وحدها مصر. ولقد تطلبت حبكة التواطؤ تغيير هدف العملية قادش، قبل أيام من تنفيذها ليصبح "خلق حالة تهديد على مشارف قناة السويس، تعرض الملاحة فيها لخطر التوقف"(٧٣).

ويؤكد الجنرال حاييم لاسكوف، أن معارك جيش إسرائيل في سيناء كانت محدودة جدًا لعدة أسباب(٧٤):

- إن ستة لواءات كانت قد سحبت من القوات المصرية بسيناء في نهاية عام ١٩٥٥ وأوائل ١٩٥٦، لكي يعاد تسليحها وتدريبها على العتاد السوفييتي.

- بعد احتدام أزمة تأميم شركة قناة السويس، وترجيح مصر بأن خطر الحرب قد تحول من ناحية إسرائيل إلى توقع غزو أنجلو فرنسي وشيك، قامت القيادة العامة المصرية بسحب كل قواتها من سيناء تقريبًا باستثناء ست كتائب في أم قطف والعريش ورفح وكتيبة سابعة في شرم الشيخ.
- دارت المعارك في سيناء في أم قطف بقيادة الجنرال سمحوني حيث نجح العقيد سامي يس في وقف هذا الهجوم لمدة طويلة، وفي رفح حيث فعل العقيد جعفر العبد نفس الشيء، وفي متلا حيث تعرض لواء شارون المظلي لمحنة حقيقية داخل الممر، لم ينقذه منها إلا غارات الطائرات الفرنسية على المواقع الدفاعية المصرية.

وختم حاييم لاسكوف نقده بالتحذير من أخذ حملة سيناء كدرس في الأداء العسكري الجيد للأسباب التالية[٧٥]:

١. إن رئيس الأركان العامة كان مشغولاً بالترتيبات السياسية وحبكة التواطؤ مع المملكة المتحدة وفرنسا، أكثر من انشغاله بقيادة الجيش.
٢. إن الخطة قادش لم تكن تثق بحلفائها الأنجلو فرنسيين، وأنهم سوف ينفذون دورهم في بروتوكول التواطؤ (اتفاق سيفر)، ولهذا فقد كان بن جوريون وموشي دايان على استعداد دائم للإعلان بأن العملية لا تعدو إغارة ضخمة على أوكار الفدائيين العرب بسيناء، يتم بعدها الانسحاب داخل الحدود.
٣. إن البريطانيين حرصوا على إخفاء التواطؤ، لدرجة قيامهم بإطلاق النار من إحدى طائراتهم على جنودنا، الذين أسرعوا بتقديم المساعدة لطيار بريطاني أصابت المدفعية المصرية طائرته، وأرغمتها على الهبوط.

٤. إن جو عدم الثقة وصل إلى درجة إيقاف إطلاق النيران، بواسطة الزعامة السياسية الإسرائيلية يوم ٤ نوفمبر، قبل أن تنزل القوات الأنجلو فرنسية على شاطئ الغزو ببورسعيد، مما سبب حرجًا بالغًا لإيدن ومموليه حيث انتفت ذريعة عدوانهما التي زعمت الرغبة في الفصل بين قوات إسرائيل ومصر(٧٦).

٥. إن قوات أبراهام يوفيه دخلت شرم الشيخ – الهدف النهائي للحملة – بعد وقف إطلاق النار، وبعد صدور أمر الانسحاب إلى العقيد رؤوف محفوظ زكي(٧٧).

كما كتب البريجادير الأمريكي ستيوارت تقريرًا عسكريًا للبنتاجون، بوصفه الملحق العسكري بتل أبيب، جاء في ديباجته "إن العيب الأساسي لحملة إسرائيل ضد سيناء كان سوء التنظيم والتخطيط، بالإضافة إلى ضعف سيطرة القيادة العامة عليها، والتي لم ترتفع إلى مستوى قيادة العمليات الحربية في الجيوش العصرية، بل كانت أقرب شبهًا إلى أسلوب حرب العصابات منه إلى أسلوب الحرب الحديثة"(٧٨).

"وعلاوة على ذلك.. فقد أغارت الطائرات الإسرائيلية على وحدات برية إسرائيلية، واشتبكت وحدات إسرائيلية ضد بعضها في أم قطف، وفشلت لواءات إسرائيلية في احتلال مواقع دفاعية مصرية قليلة العدد ضعيفة التجهيز، وكان التنسيق والتعاون بين القوات الإسرائيلية في المحور الواحد بالغ الضعف"(٧٩).

وبقدر عنف النقد وتعدد مجالات الخطأ، بقدر ما كان حرص المؤسسة العسكرية الإسرائيلية على معالجتها بكل جدية، الأمر الذي استغرق منها نيفًا وعشر سنوات لتأتي الجولة الثالثة في صيف عام ١٩٦٧ خالية من أغلبها، إن لم تكن كلها(٨٠).

كيف أدار أطراف التواطؤ الصراع

أولاً: المملكة المتحدة

بات من المألوف إبان أزمة السويس في عام ١٩٥٦ وبعدها أن يتهم أنتوني إيدن وغيره من الوزراء البريطانيين عبد الناصر بالكراهية الشديدة لبريطانيا، وأنه يسعى إلى القضاء على كل مصلحة اقتصادية وتجارية لها في جميع أنحاء العالم العربي(٨١).

لقد بدأت أزمة السويس حقيقة في اليوم الذي أقال فيه الملك حسين ملك الأردن الجنرال جلوب من منصبه كقائد للأركان في الجيش الأردني، ذلك أنه في هذا اليوم بالذات أعلن أنتوني إيدن حربه الشخصية ضد الرئيس جمال عبد الناصر.. هذه الحرب التي تصاعدت حتى بلغت ذروتها بغزو السويس(٨٢).

هذه الواقعة التي التقطها معارضو إيدن لمهاجمته زاعمين أنه حتى في مجال تخصصه وهو السياسة الخارجية.. بل وفي أخص مجالاته وهو الشرق الأوسط قد لحقته الهزيمة.. وبدأ الانهيار يدب حتى في هذا المجال(٨٣).

ويذكر أنتوني ناتنج: "ولقد أمضيت معظم تلك الليلة – ليلة طرد جلوب – مع إيدن أحاول أن أحلل على أسس عقلانية تصرف الملك حسين بطرد ذلك الجنرال العجوز من رئاسة أركان جيشه.. ولكن إيدن أصم أذنيه عن كل هذا.. ولم يكن في ذهنه غير زعم واحد: "أن هذا هو من فعل عبد الناصر!!"(٨٤).

ومنذ تلك اللحظة حتى النهاية لم تعد الدنيا تستطيع أن تتسع لاثنين معًا: إيدن وعبدالناصر!! في تلك الليلة أعلن رئيس الوزراء إيدن "حربه الشخصية" على الرئيس عبد الناصر.. تلك الحرب التي بلغت ذروتها بمأساة السويس.. بل إن إيدن قد ذهب إلى أبعد من ذلك.. فقد قرر أن يرتدي عباءة سلفه

ونستون تشرشل – بكل ما يحتويه هذا التعبير من أبعاد – فتخلى عن دور "الدبلوماسي" لكي يتقمص دور "المحارب"(٨٥).

ومنذ طرد الجنرال جلوب.. ظل أنتوني إيدن عاجزًا عن أن يشن الحرب ضد عبد الناصر، فكان عليه أن ينتظر حتى شهر يوليو ١٩٥٦، عندما قام جون فوستر دالاس بسحب عرض تمويل السد العالي. وسارع إيدن إلى الاقتداء بدالاس فأسقط عرض البنك الدولي لتمويل السد، ورد عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس، فظن إيدن أن الفرصة قد جاءته أخيرًا(٨٦).

وأعد إيدن خطته الحربية مع فرنسا لغزو مصر.. تلك الخطة التي عرفت باسم "موسكيتير"، ولكن عبد الناصر لم يعطه الفرصة التي يمكن أن يتخذها مبررًا وذريعة لتنفيذ تلك الخطة، فلا الملاحة تعطلت في القناة، كما لم تتوقف فيها سفينة واحدة، على الرغم من أن السفن البريطانية والفرنسية وسفن بأعلام أخرى وتحت ضغط المملكة المتحدة وفرنسا ظلت تدفع رسوم المرور إلى الشركة القديمة، وليس للهيئة المصرية(٨٧).

ولم تتوقف أية سفينة ولم يحل دون أي واحدة منها والعبور في القناة، كما لم يقع الضرر على أي من الرعايا البريطانيين في منطقة القناة أو قاعدتها، وبهذا أسقط في يد إيدن الذي لم يجد مبررًا يتعلل به لتنفيذ خطته العسكرية، ومن ثم أخذ يبحث عن وسائل أخرى للضغط على مصر(٨٨).

دعيت القوى البحرية إلى "مؤتمر لندن"، وذهب منزيس فرانس رئيس وزراء أستراليا إلى مصر في أوائل سبتمبر ١٩٥٦ حاملاً مقترحاتهم بإنشاء مجلس أو هيئة دولية لإدارة القناة ولكن بلا جدوى، لأن عبد الناصر قال: إن هذا الاقتراح يعود بنا إلى النظام الدولي القديم للقناة ولكن بقاعدة أوسع. وعلى نفس المنوال جرى الأمر في الأمم المتحدة وانتهت المناقشات بفيتو

سوفييتي في مجلس الأمن ضد قرار مماثل تم وضعه إرضاء لبريطانيا وفرنسا(٨٩).

وقد أصاب هذا كله إيدن بالإحباط، ولكن ما لم يكن يدريه بالطبع في ذلك الوقت هو أن فرنسا بدأت تخطط لحسابها حلاً عسكريًا للقضية باستخدام إسرائيل على أساس أن تهاجم مصر وتتخذ فرنسا من الهجوم ذريعة للتدخل العسكري بدعوى إنقاذ القنال من القتال بين الجانبين، تلك كانت الذريعة(٩٠).

كان جي موليه – رئيس وزراء فرنسا مقتنعًا – تمامًا مثل أنتوني إيدن – بأن كل متاعبه في العالم العربي كان سببها عبد الناصر.. وأنه إذا أمكن إزاحة عبد الناصر فإن ثورة الجزائر – والتي اشتعلت زهاء سنتين – سرعان ما تتوقف.. وأن الجزائريين سوف يهدأون ويعيشون في سعادة تحت الحكم الفرنسي وأن المشكلة كلها سببتها خطيئة ناصر(٩١). ومن ثم فقد كان جي موليه توافقًا مثل إيدن للالتجاء للحل العسكري في هذه الأزمة، ولكن المشكلة كانت هناك، سرعان ما برزت في المحادثات بين الفرنسيين والإسرائيليين، فقد فرض الإسرائيليون شرطًا أساسيًا وقاطعًا.. الأمر الذي جعل فرنسا عاجزة عن مواجهة الموقف وحدها(٩٢).

لقد أصر بن جوريون إصرارًا لا تراجع عنه: أنه إذا ما كانت إسرائيل ستهاجم مصر فإنه يتعين مقدمًا أن "تزاح وتستأصل" قوة ناصر الجوية.. كانت هذه هي كلماته "تستأصل".. و إلا فإنه يخشى أن مدن إسرائيل سوف تسوى بالأرض بواسطة قاذفات الأليوشن التي يملكها ناصر(٩٣).

وفرنسا لم تكن تملك القيام بهذا العمل.. ففرنسا لم تكن تستطيع أن تضرب مصر بالقنابل من القواعد الفرنسية التي كانت بعيدة حتى تلك التي في الجزائر. وكان هذا يعنى أنه لا بد من إدخال بريطانيا في العملية التي لها قواعد في قبرص قريبة بما فيه الكفاية لأداء هذه المهمة(٩٤).

وهكذا وفد إلى بريطانيا يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥٦ مبعوثان فرنسيان هما المسيو جازييه الذي كان وزيرًا للخارجية بالنيابة في فرنسا والجنرال شال، ليضعا الأمر بين يدي إيدن في تشيكرز – المقر الريفي لرئيس وزراء بريطانيا – في سرية ليقدما إلى إيدن فكرة استخدام إسرائيل في إيجاد الذريعة لتدبير التدخل العسكري الأنجلو فرنسي ضد مصر، وهي الذريعة التي كان يتوق إليها منذ شهر يوليو ١٩٥٦[٩٥].

وهكذا وجد إيدن أخيرًا فرصته الذهبية.. فتلقفها وتشبث بها بكلتا يديه. ويذكر نانتج: "ولكن الشيء الغريب – المحزن في نظري– أنه في تلك الأثناء وفي نيويورك – وقبل يومين فقط من وصول المبعوثين الفرنسيين إلى تشيكرز– كان سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا وكريستيان بينو وزير خارجية فرنسا قد توصلا بحضور داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة إلى الخطوط العريضة لاتفاق مع الدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر، يعطى لبريطانيا وفرنسا – بصورة واقعية وعملية – كل ما يحتاجانه من الضمانات التي تؤكد أن قناة السويس ستظل تدار في المستقبل وفق احتياجات الدول المستخدمة لها. وأن هذه الخطوط العريضة للاتفاق سيجرى صياغتها والتوقيع عليها في اجتماع يعقد في جنيف يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦[٩٦]. ومفهوم طبعًا، أنه لا إيدن ولا موليه، كانا يريدان اتفاقًا، كان كل منهما يريد نصرًا، وفي الخطة التي تواطأ الفرنسيون مع الإسرائيليين على إعدادها، وجد إيدن وموليه ما يعتقدان أنها الفرصة لتحقيق ذلك النصر"[٩٧].

وبعد يومين من الزيارة الفرنسية – وقبل عودة سلوين لويد من نيويورك – دعا إيدن بعض أخصائه من الوزراء المتعاطفين مع ميوله إلى اجتماع لدراسة الخطة الفرنسية[٩٨]. ويصف نانتج ما دار في هذا الاجتماع، فيقول: "لقد جادلت إيدن بعنف، وعارضت هذه الخطة قائلاً أنها غير أخلاقية من

الناحية السياسية، وأنها خطة خرقاء تمامًا عارية من التعقل، في الوقت الذي أصبح بين أيدينا اتفاقًا يكاد يكتمل. وقلت أيضًا أننا لا نستطيع أن نفلت من مغبتها بالتظاهر بأننا نرسل قواتنا، لإيقاف حرب نحن أنفسنا قد أشعلناها، ثم نضرب بقنابلنا المعتدى عليه بدلاً من أن نضرب المعتدى، فننتهك بصورة فاضحة كل التزاماتنا الدولية، وبالأخص تلك المعاهدة التي وقعتها بنفسي مع عبد الناصر منذ عامين. ولقد حدث أن وصل سلوين لويد قبل نهاية الاجتماع – وعلى الرغم من أنه قد وافقني في البداية على وجهة نظري. إلا أن إيدن استطاع – فيما بعد – أن يدير رأسه، وأخذ الاثنان بعد ظهر ذلك اليوم طريقهما سويًا إلى باريس، ليعلنا للفرنسيين موافقتنا على الخطة، وأننا سننضم إليهم في تنفيذها[٩٩].

لم يكتف الحلفاء الغربيون – بريطانيا وفرنسا – بذلك بل لقد التقوا معًا في سيفر مع بن جوريون للاتفاق على العدوان على مصر. فقد بدأت مباحثات سيفر عصر يوم ٢٢ أكتوبر بين الفرنسيين والإسرائيليين وكان الجانب الفرنسي مكونًا من جي موليه، وكريستيان بينو وبورجيس مونوري وزير الدفاع، وتكون الجانب الإسرائيلي من بن جوريون وشيمون بيريز وموشي دايان وجولدا مائير[١٠٠].

وفي هذا الاجتماع اقترح بن جوريون أنه لا داعي للإسراع في ترتيب حملة عسكرية وأنه يجب إعطاء أولوية لبحث الممكنات السياسية، إلا أن الفرنسيين لم يكونوا مستعدين للتحول عن الإجراء العملي وهو الحرب[١٠١]. وفي صباح ٢٣ أكتوبر بدأ الاجتماع الثاني بين القادة الفرنسيين والإسرائيليين وتحدث بن جوريون عن احتياجات إسرائيل وذكر أنها تحتاج إلى المال والسلاح وأن مدنها معرضة للإغارة الجوية والقصف البحري، وقبل أن يحل وقت الغذاء كان هناك اتفاق رسمي يقضي بأن تؤمن القوة الجوية الفرنسية

الغطاء الكافي للمدن الإسرائيلية وأن تتولى البوارج الفرنسية حراسة السواحل الإسرائيلية على أن تقوم القوات الفرنسية بحراسة إسرائيل من أي دولة عربية معادية بالإضافة إلى مصر(١٠٢).

واعترف شيمون بيريز بأن موضوع البرنامج النووي الإسرائيلي قد بدأ الاتفاق عليه خلال اجتماع سيفر في ضاحية باريس عندما اجتمعت القيادة الفرنسية والإسرائيلية مع عدد من الرسميين البريطانيين ووضعوا تفاصيل العدوان الثلاثي على مصر. وقد ربط الفرنسيون والإسرائيليون تعاونهما في تلك العملية بتعاون آخر في برنامج نووي تقدمه فرنسا إلى إسرائيل وهو مفاعل نووي في ديمونه هدية منها مقابل أن تتولى إسرائيل الجزء القذر من العلمية(١٠٣).

كان بن جوريون متشككًا في بريطانيا إلى حد بعيد وأحس – وكان محقًا في إحساسه – أن سلوين لويد لم يكن متحمسًا تمامًا للخطة الفرنسية(١٠٤). وقال إنه لا يريد أن يتورط في نزاع السويس والذي وصفه بأنه نزاع بريطاني–فرنسي مع مصر، وهو أمر لا يعنى إسرائيل في شيء. وذهب بن جوريون إلى أبعد من هذا عندما أصر على أنه إذا ما كانت إسرائيل ستشارك في العملية وتقبل أن تمثل دور الذريعة لتبرير التدخل البريطاني الفرنسي فإنه لابد أولاً أن يجرد عبد الناصر من قوته الجوية وأن تستأصل قاذفات القنابل الاليوشن التي في حوزته على أن يتم ذلك بمجرد أن تجتاز القوات الإسرائيلية حدود مصر.. بل في نفس اللحظة التي تجتاز فيها القوات الإسرائيلية هذه الحدود(١٠٥).

واعترض سلوين لويد بأن هذا المطلب سيطيح بالخطة من أساسها.. وأنه يجب أن يكون هناك فاصل زمني يتيح لمصر أن ترفض إنذارنا ومطالبتنا بأن تنسحب قواتها وقوات إسرائيل من قناة السويس ومن ثم تتح للقوات

الأنجلو فرنسية العذر للتدخل[١٠٦]. ولكن بن جوريون ظل يصر على ضرورة التعجيل بضرب القواعد الجوية المصرية بمجرد بدء إسرائيل العمليات، ولكنه في النهاية وافق على مده ثمان وأربعين ساعة كفترة فاصلة[١٠٧].

وهكذا، وبعد هذا التفاهم وضعت الخطة الثلاثية موضع التنفيذ. ففي يوم ٢٩ أكتوبر هاجمت إسرائيل، وهو اليوم الذي كان مفروضًا أن يلتقي فيه سلوين لويد مع الدكتور محمود فوزي في جنيف ليعملا على أن يصبح هيكل الاتفاق الذي توصلا إليه في نيويورك اتفاقًا نهائيًا! [١٠٨]، وطالبت بريطانيا وفرنسا الجانبين المتحاربين بالانسحاب عشرة أميال بعيدًا عن قناة السويس لكي تتيح لقواتهما احتلال منطقة القنال[١٠٩].

في هذا الوقت الذي كانا يطالبان فيه الإسرائيليين والمصريين بالابتعاد لم تكن القوات الإسرائيلية قد وصلت بعد إلى منطقة القناة. وهكذا وببساطة فإن ما كانا يطالبان به معناه واقعيًا وعمليًا.. هو أن تتقدم القوات الإسرائيلية حوالي ٧٥ ميلاً لتكون على مسافة عشرة أميال من القناة، بينما على القوات المصرية أن تنسحب زهاء ١٢٥ ميلاً لتحقق هذا المطلب.. كان منطقًا هزليًا![١١٠].

وهكذا .. ففي مساء يوم ٣١ أكتوبر قامت قاذفات القنابل البريطانية بضرب القواعد الجوية الأربعة الرئيسية لمصر، لتشل تمامًا فاعلية طائرات الإليوشين المصرية[١١١]. ويذكر أنتوني ناتنج: "ولما كنت في ذلك الوقت قد فشلت في الحيلولة دون وقوع هذه المأساة، شعرت بأنه لا يمكنني أن أكون مدافعًا عن موقف الحكومة سواء أمام مجلس العموم أو أمام الأمم المتحدة.. وكان على أن أستقيل!!" [١١٢].

ما بعد ذلك، كان التاريخ.. أجبرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل تحت ضغط التهديدات الأمريكية والسوفيتية، وإلحاح الرأي العالمي على إيقاف العدوان والانسحاب(١١٣). ويذكر مايكل فوت: ولكن ليس هناك ما يمكن أن يقال ليمحو نهائيًا الجرم الذي حدث في السويس .. وإني لحزين إذ أقول إن أكثر ما كشف عنه مؤخرًا من وثائق يضيف مزيدًا من الإدانة والتجريم والبشاعة لهذا الذي حدث.. لم تكن كلمة "تواطؤ" كلمة مألوفة من قبل، ولكنها أصبحت كلمة شائعة في المناقشات العامة، أثناء الهجوم على السويس، وكانت أول مرة ذكرت فيها – كما ورد في الكتاب الذي قرأت فيه عن هذا الموضوع كتاب عن تاريخ حياة أنتوني إيدن – كانت هناك إشارة إلى كلمة "التواطؤ" إنها وردت قبل وقوع العدوان بثلاثة أيام في اجتماع لمجلس الوزراء البريطاني.. ثم ظل الإنكار يلف بها أسابيع طويلة بعد العدوان.. كانت الواقعة تنكر وتنفى.. ولكن الواقعة كانت حقيقية.. وكان هناك "تواطؤ" وهذه الكلمة تعنى أنه كان هناك اتفاق شرير ومجرم بين بلدنا والبلاد الأخرى المشتركة معها في هذا التواطؤ.."(١١٤).

أما إيدن الذي كان يخطط لمجد زاهر ونصر عسكري ساحق، اضطر للاستقالة بعد شهرين، وانزوى محطمًا يواجه نهاية مأساوية لرجل حاول أن يلعب دورًا لا يناسبه(١١٥).

العمل المشترك بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة (بان آلفا وأوميجا)

أقدم إيدن في نهاية عام ١٩٥٤ على مبادرتين في الشرق الأوسط، كانت إحداهما في العلن وهى: تأييده لحلف بغداد، والعمل على تدعيمه، بينما احتفظ بالثانية في الخفاء، ولم يكشف عنها إلا حديثًا، وتعرف بالاسم الرمزي "بان آلفا" وكانت نتيجة اقتراح من إيدن قدمه لدالاس .. لكي يعمل الاثنان سويًا في جهد مشترك للوصول إلى تسوية نهائية للقضية الفلسطينية(١١٦).

وقد شكل لهذه الغاية فريق مشترك من المفاوضين البريطانيين والأمريكيين، فكان السير إيفيلين تشاك العضو عن الجانب البريطاني، والمستر فرانسيس رسل العضو الرئيسي عن الجانب الأمريكي، وقد خول الاثنان للعمل بمعزل عن وزارتي الخارجية الأمريكية والبريطانية، كما كانت معظم الأجهزة الدبلوماسية العادية في البلدين في معزل عن هذه الخطة(١١٧).

وكان الرئيس عبد الناصر في نظرهما، هو الشخصية القوية في العالم العربي، التي تستطيع أن توقع اتفاقية سلام دائم مع إسرائيل، وتضمن لهذا السلام أن يبقى. ولكي يوفرا فرصة النجاح لخطة "بان آلفا" انصب اهتمام بريطانيا وأمريكا على تدعيم مركزه وتقويته سياسيًا(١١٨).

ولكن في نفس الوقت، كان إيدن متورطًا في العلن في مبادرة حلف بغداد، بما يتعارض مع أهداف خطة "بان آلفا" ليس من الناحية النظرية فقط، وإنما من الناحية العملية أيضًا، إذ يترتب عليه إدخال العراق – بزعامة نوري السعيد– في حلف دفاعي يهدد المصالح السياسية للرئيس عبد الناصر(١١٩).

وحاول أيزنهاور ودالاس في البداية كسب ود عبد الناصر بعرض تمويل بناء السد العالي، وحاولا تهدئة الوضع المصري الإسرائيلي عن طريق إرسال المبعوث الخاص روبرت أندرسون لرعاية اتفاق في أوائل عام ١٩٥٦، إلا أن ناصر لم يقبل شروط عرض مساعدات السد والتعاون بشكل تام مع مهمة أندرسون. والأسوأ من ذلك أنه شجع أعمال الشغب المعادية لبريطانيا في الأردن والبحرين، واستمر في انتقاده لحلف بغداد، واشترى سلاحًا من بولندا، واعترف بجمهورية الصين الشعبية. وانتهى مسئولو مجلس الأمن القومي إلى أن "الحياد الإيجابي" الخاص بناصر، يعمل في واقع الأمر لمصلحة الكتلة السوفيتية، حيث إنه موجه ضد المواقف الغربية الراسخة(١٢٠).

وبعد اعتراف ناصر بالصين الشعبية، انتقل العمل في كل من لندن وواشنطن من المجال السياسي إلى المخابرات، التي طلبت في اجتماع عمل مع مندوب المخابرات الأمريكية في لندن، ضرورة قتل جمال عبد الناصر للخلاص منه[١٢١]. في ذلك الوقت قامت الولايات المتحدة من جانبها بتأليف مجموعة أوميجا، برئاسة السفير ريموند هير لحسم موضوع الرئيس عبد الناصر، ولم يكن هناك حديث عن عقد صلح، وإنما أصبح الموضوع هو الخلاص من عبد الناصر طبقًا لخطة أوميجا، وإن اختلفت الوسائل. فبينما كان البريطانيون يحبذون الغزو.. كان الأمريكيون يفضلون الوقيعة بين الملك سعود والرئيس عبد الناصر، توطئة لإحداث انقلاب في سوريا حتى تبقى مصر وحدها. وفي تلك اللحظة سوف يسهل إسقاط الرئيس عبد الناصر[١٢٢].

وكان المسئولون الأمريكيون قد انتهوا بحلول مارس ١٩٥٦ إلى أنه بالرغم من جهود كسب ود ناصر، فقد برز كتهديد لمصالح أمنهم القومي في الشرق الأوسط. ولذلك وضعوا بالاشتراك مع البريطانيين سياسة أوميجا، وهى مجموعة من الخطوات للنيل من مكانة ناصر بين الشعوب العربية وربما للإطاحة به. وأشار دالاس إلى أن أوميجا سوف تجعل الكولونيل ناصر يدرك أنه لا يمكنه التعاون كما هو الحال الآن مع الاتحاد السوفيتي ويتمتع في الوقت نفسه بمعاملة الدولة الأولى بالرعاية من جانب الولايات المتحدة. وكانت أوميجا تخطط للسحب التدريجي لعرض مساعدات السد العالي، ولكن في يوليو وتحت ضغط قوى من الكونجرس، ألغى دالاس الاتفاق فجأة. ورد ناصر على عدم الوفاء بتعهد بناء السد العالي بتأميم شركة قناة السويس وإعلان أن عائداتها سوف تمول السد العالي[١٢٣].

وفي أواخر ١٩٥٦ وقرر البريطانيون على الفور استخدام القوة لاستعادة الممر المائي والإطاحة بناصر من السلطة، وفي النهاية تآمروا مع الفرنسيين والإسرائيليين لشن هجوم ثلاثي على مصر بدأ في ٢٩ أكتوبر. وفي المقابل

قرر الرئيس أيزنهاور في وقت مبكر من الأزمة أن القوة سوف تهدد مصالح الأمن القومي الأمريكي. فالهجوم البريطاني على مصر سوف يثير كراهية إنجلترا في أنحاء العالم، ويؤجج نار القومية العربية، وبذلك يعرض واردات النفط إلى الغرب للخطر، ويؤدى إلى احتلال بريطاني طويل ومكلف لمنطقة قناة السويس، وأبلغ أيزنهاورمجلس الأمن القومي في ٣١ يوليو أن الولايات المتحدة ترى أن السماح للندن بشن حرب على مصر "سوف يوحد إلى حد كبير العالم من داكار إلى جزر الفلبين ضدنا"، كما أن حدوث صدع في العلاقات مع لندن سوف "يكون على قدر كبير من الخطورة، إلا أنه ليس في خطورة السماح للحرب بأن تبدأ وعدم السعي لإيقافها"(١٢٤).

وبناء على ذلك سعى أيزنهاور لاستخدام الدبلوماسية لتأجيل الهجوم البريطاني، باعتبار أن الوقت سوف يهدىء من انفعال البريطانيين ويبعد شبح الحرب. وفي أواخر شهر يوليو أرسل نائب وكيل وزارة الخارجية للشؤون السياسية روبرت ميرفي ومعه دالاس إلى لندن لتهدئة الغضب البريطاني. وفي أغسطس رتب أيزنهاور ودالاس مؤتمر لندن لوضع حل دبلوماسي لمسألة السيطرة على القناة، واقترحوا في سبتمبر إنشاء رابطة المستفيدين من القناة للسيطرة على الممر المائي، وفي أكتوبر شجعوا بريطانيا ومصر على حل خلافاتهما من خلال المفاوضات التي ترعاها الأمم المتحدة. وناشد أيزنهاور في السر والعلن رئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن ضبط النفس. وقال في برقية بعث بها إلى إيدن في ٣ سبتمبر: "إن استخدام القوة سوف يزيد مساحة الخطر زيادة ضخمة". كما أن العالم النامي "سوف يتكتل ضد الغرب إلى درجة أخشى أنه لن يمكن التغلب عليها خلال جيل، بل وربما خلال قرن"(١٢٥).

وما إن بدأت الأعمال القتالية في ٢٩ أكتوبر حتى تحرك أيزنهاور لوقف القتال فورًا لأسباب أمنية ثلاثة(١٢٦):

أولاً: فقد أسف لأن الهجوم على مصر صرف أنظار العالم عن سحق موسكو الوحشي للتمرد في المجر.

ثانيًا: كان يخشى أن يدعم السوفييت مصر سياسيًا وبالتالي يكسبون التأييد بين الدول النامية. وأشار دالاس إلى أنه ما لم توقف الولايات المتحدة القتال فإن كل تلك الدول التي حصلت حديثًا على استقلالها سوف تتصرف عنا إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. وسوف ينظر إلينا على أننا مقيدون للأبد في السياسات الاستعمارية البريطانية والفرنسية. وأضاف أيزنهاور قائلاً: "كيف يمكن لنا تأييد بريطانيا وفرنسا، إذا كنا سنفقد بذلك العالم العربي قاطبة". وكان عدم التحرك الأمريكي سيمكن الاتحاد السوفيتي من الاستيلاء على زعامة العالم من خلال إبداء الاهتمام الزائف، ولكنه مقنع، بالدول الصغيرة[١٢٧].

ثالثًا: كان أيزنهاور يشعر بقلق شديد من التهديدات السوفيتية بالتدخل عسكريًا للدفاع عن مصر. وفي ٥ نوفمبر، أي بعد يوم واحد من سحق التمرد في بودابست، هددت موسكو بإرسال قوات إلى مصر وإطلاق الصواريخ على لندن وباريس. وفسرت هيئة الأركان المشتركة هذا التصريح على أنه "عزم خطير من جانب السوفييت". وأشار أيزنهاور إلى أن الزعماء السوفييت كانوا "خائفين وغاضبين" بشأن المجر "وليس هناك ما هو أخطر من الدكتاتورية في هذا النسق العقلي". وحذر الرئيس موسكو من أن الولايات المتحدة سوف تدافع عن حلفائها، إلا أنه زاد من ضغوطه الدبلوماسية والمالية لإقناع بريطانيا وفرنسا بوقف القتال. وقبلت الدولتان قرار الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار في ٦ نوفمبر[١٢٨].

كيف أدار عبد الناصر الصراع

كانت مشروعية التأميم متوفرة على أكمل وجه في قرار جمال عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس، لأنه كان يستجيب لمطلب كان في أعماق الضمير المصري ولم يكن ينقص تحقيقه إلا ظهور عنصر الإرادة الوطنية – وهذه شرعيته[١٢٩]. وقد عرف جمال عبد الناصر أن نجاح قراره يرتبط بكفاءة إدارة المرفق. لذلك ركز اهتمامه في اختيار الإدارة معتبرًا أنها العامل الأساسي في النجاح، ثم أعطى لهذه الإدارة سلطة الدولة كلها[١٣٠].

وضمانًا نهائيًا للنجاح فقد أعطاها حق فرض الأحكام العسكرية على العاملين الأجانب في القناة، وكان واثقًا أن هذا الإجراء الذي يبدو تعسفيًا لن يواجه معارضة شديدة في البداية فالغرب يحتاج إلى القناة أكثر منه – لأنه يحتاج إلى تدفق البترول – لأن احتياطياته منه في ذلك الوقت لم تكن تزيد على أربعة أسابيع – وبالتالي فإنهم هناك مضطرون إلى فترة تخزين قبل الإقدام على مخاطرات يمكن أن تؤدى إلى إغلاق القناة. هم يحتاجون إلى فترة تخزين وهو يحتاج إلى فترة ترتيب[١٣١].

وهكذا فإن عامل حسن اختيار الإدارة المصرية للمرفق عززه ضمان إضافي باستبقاء الجزء العملي من الإدارة الأجنبية ولو حتى بقوة الأحكام العسكرية خصوصًا على المرشدين، ثم إن ذلك كان يتيح الوقت لإعداد وتجنيد عناصر فنية تواجه الموقف في حالة ما إذا أصبح الغرب على استعداد لإثارة موضوع القسر الواقع على العناصر الأجنبية، وهو ما حدث بعد ذلك فعلاً بعد سبعة أسابيع في ١٥ سبتمبر ١٩٥٦ – انسحب المرشدون الأجانب يومها ولم يكن صانع القرار المصري نائمًا في قيلولة ظهيرة في يوم صيف حار[١٣٢]. كان الرئيس عبد الناصر حريصًا قبل إعلان قرار التأميم على التحقق من حجم القوات الأنجلو فرنسية القريبة من مصر،

ودرجة استعدادها، ولم يتخذ قراره إلا عندما تأكد أن حجمها غير كاف وأنها غير مستعدة للتدخل الفوري(١٣٣).

غير أن الرئيس عبد الناصر كان يتصور أن العمل السياسي أسبوعًا وراء أسبوع سوف يجهض فكرة التدخل المسلح، ولم يكن يدرك الحالة النفسية التي استبدت بأنتوني إيدن. كما كان يتصور أن إيدن سوف يربأ بنفسه عن التواطؤ مع إسرائيل في حملة عسكرية ضد مصر، حتى لا يحرج أصدقاءه العرب، ويتسبب في تقلص النفوذ البريطاني في المنطقة والإضرار بمصالحه. لكن إيدن تصرف على عكس ما تصور عبد الناصر، فدفع الثمن غاليًا حيث سقط وانزوي عن عالم السياسة، كما دفعت المملكة المتحدة ثمنًا غاليًا، إذ تحولت من قوة عظمى إلى دولة تابعة للولايات المتحدة(١٣٤).

وقد حافظ عبد الناصر على هدفه الاستراتيجي، وهو المحافظة على قناة السويس، فلم يسمح لأية عوامل تكتيكية أن تنال منه. أما هدفه التكتيكي فكان كسب الوقت لتعبئة الرأي العام العالمي وتحريك موازين القوى لصالحه. وقد أحسن استغلال تناقضات الأطراف، حتى ولو كانت مرحلية، ليتجنب التدخل العسكري. ولهذا لم يعترض على مؤتمر لندن الأول، كما لم يعترض على مجيء بعثة منزيس إلى مصر أو ذهاب المملكة المتحدة وفرنسا إلى الأمم المتحدة، وإنما استغل كل ذلك للمناورة، وكسب الوقت، وتعبئة الرأي العام، وتحريك الموازين(١٣٥).

وكان عبد الناصر على استعداد لأن يناقش، ويسمع، ويبدي رأيه، ويعقد الاتصالات المباشرة وغير المباشرة، مع التجاوز عما هو تكتيكي، ليحافظ على هدفه الاستراتيجي، ولهذا سمح بمرور السفن التي لا تدفع الرسوم للهيئة المصرية، شريطة أن تضاف رسوم مرورها على حساب شركاتها حين يجيء يوم الحساب. ولو كان رفض أن تمر أي سفينة دون أن

تدفع الرسوم، لتسبب في تعطيل حركة المرور في القناة، ولأعطى للمتربصين حجتهم. وتحت ظروف القتال، فإنه رفض عمليًا ومعنويًا أن ينساق إلى قرار بإعلان الحرب على المملكة المتحدة طبقًا لما تقضي به الأصول، فلقد كان ينظر إلى ما بعد انتهاء المعارك، ويعرف أنه لا يستطيع أن يطبق على المملكة المتحدة ما يمكن تطبيقه على إسرائيل، ومنع مرور سفنها من قناة السويس طالما استمرت حالة الحرب(١٣٦).

وهكذا عالج عبد الناصر الأمور بمرونة منذ البداية، وحافظ على هدفه الاستراتيجي طوال الأزمة، فبمجرد أن بدأت المعارك، أصدر أمره بإغلاق قناة السويس حتى لا تتكرر تجربة أحمد عرابي عام ١٨٨٢. وعندما حان وقت إيقاف تدفق النفط إلى الغرب كجزء من الصراع، تحقق ذلك على أكمل وجه حينما قامت كل العناصر المؤيدة له على الساحة العربية بنسف خط الأنابيب الممتد من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط عبر سوريا(١٣٧).

ولقد كان تمثله لساحة المعركة هو الذي حفزه إلى اتخاذ واحد من أهم القرارات العسكرية في مجرى الحرب وهو قرار سحب مجموعة القوات الرئيسية التي تقدمت إلى سيناء بعد أن تدخلت إسرائيل بدورها في التواطؤ على حدود مصر، وذلك حتى لا ينقسم الجيش المصري إلى قسمين – واحد يواجه إسرائيل في سيناء وآخر يواجه بريطانيا وفرنسا خلفه على القناة أو في الدلتا، وإنما رأى تجميع قواته والدخول في معركة أساسية واحدة. ولقد قاتل في سيناء بالقدر اللازم لحماية الانسحاب، وقاتل في بورسعيد بالقدر اللازم لوقف تقدم قوات الغزو، واختار سلامة الطيارين على سلامة الطائرات أمام تفوق جوى أنجلو فرنسي لكي يصون قواه لمرحلة أخرى من المعركة رآها في انتظاره إذا لم تخرج إسرائيل من سيناء وقطاع غزة(١٣٨).

وبعد انتهاء العدوان، وفي ٢٤ أبريل ١٩٥٧، أبلغت مصر المستر داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة بإعلانها الخاص بقناة السويس. وفي الرسالة التي وجهها الدكتور محمود فوزي إلى السكرتير العام، جاءت الإشارة إلى "فهم مصر" للمبادئ التي قررها مجلس الأمن في ١٣ أكتوبر ١٩٥٦ – ولكنها لم ترد في صلب الإعلان المصري – وإلى بيانات مصر في مجلس الأمن والخاصة بهذا القرار[١٣٩]. وطلبت مصر إيداع الإعلان وتسجيله في سكرتارية الأمم المتحدة، وبذلك يعتبر وما ضمنه من التزامات وثيقة دولية[١٤٠]. وقد حدد هذا الإعلان، الذي أعلنته مصر من طرف واحد ضماناً بحرية الملاحة في قناة السويس على أساس اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨. وإن الحكومة المصرية ستستمر في احترام ومراقبة وتنفيذ اتفاقية القسطنطينية، وتثق في أن الدول الأخرى الموقعة عليها ستلتزم بنفس المبدأ[١٤١].

وبناءً على طلب الولايات المتحدة، انعقد مجلس الأمن في ٢٦ أبريل ١٩٥٧ برئاسة مندوب بريطانيا، وأعلن مندوب الولايات المتحدة أن البيان المصري لا يتفق تماماً مع المبادئ الستة، وأنه لا يتضمن إجراءات محددة منظمة للتعاون بين مصر والمنتفعين، ولكنه أردف قائلاً أن حكومته رأت إتاحة الفرصة للتعرف على مدى صلاحية النظام الذي أعلنت مصر أنها ستسير القناة بمقتضاه[١٤٢].

أما مندوب بريطانيا فقال، أنه يود أن يسجل عدم تحقيق البيان المصري لتسوية نهائية للمشكلة وأنه جاء خلوًا من الإيضاحات اللازمة بشأن تطبيق بعض المبادئ الستة، وأنه بيان من جانب واحد[١٤٣]. أما مندوب فرنسا، فقد أعلن أن البيان لا يحقق المبادئ الستة، وأنه تصريح من جانب واحد مما يسمح لمصر بأن تعدله حينما تشاء، كما أشار إلى أن مصر لا تحترم اتفاقية

١٨٨٨ عندما تمنع سفن إسرائيل من المرور في القناة، ثم حاول التدليل في خطابه بأن البيان المصري مطاط مبهم العبارات ولا يمكن قبوله. وطالب المجلس باستئناف المفاوضات للوصول إلى معاهدة دولية بدلاً من هذا البيان الصادر من جانب واحد(١٤٤). ثم تحدث مندوب الاتحاد السوفيتي وأعلن موافقته التامة على الإعلان المصري(١٤٥).

وانتهى اجتماع مجلس الأمن دون اتخاذ قرار بشأن الإعلان المصري، وأعلن رئيس المجلس أنه سوف تتخذ ترتيبات لمناقشة أخرى يحددها رئيس المجلس بعد التشاور مع الأطراف المعنية(١٤٦).

لقد كشفت الأحداث السابقة على انعقاد مجلس الأمن، ثم المواقف المختلفة خلال انعقاده عن أمرين أولهما: أن بريطانيا تتخذ موقفًا بعيدًا عن فرنسا، فهى قد قبلت في واقع الأمر البيان المصري وهى قد سمحت لسفنها بالمرور في قناة السويس ودفع الرسوم. ثم بدأت في ذلك الوقت في السعي إلى عودة التبادل التجاري مع مصر. وثانيهما: أن فرنسا رفضت البيان المصري واعتبرته متعارضًا مع المبادئ الستة واستمرت في مقاطعة قناة السويس(١٤٧). وبين هذين الموقفين كانت السياسة الأمريكية، تسعى إلى إعادة تحالف الأطلنطي إلى قوته، وبالتالي محاولة التأثير على موقف فرنسا حتى تتجه إلى الاعتدال، وفي نفس الوقت تتعرض الولايات المتحدة إلى حملة عنيفة مضادة في المنطقة العربية ومصر تتزعم هذه الحملة وتغذيها، وذلك نتيجة مشروع أيزنهاور وما يحويه من وصاية جديدة على العرب(١٤٨).

ولكن الولايات المتحدة كانت تقدر في ذلك الوقت أن اتخاذها موقفًا عنيفًا ضد مصر يؤدى بالضرورة إلى هدم خطتها الجديدة في المنطقة وضياع نهائي للمركز الذي اكتسبته من خلال معارضتها للعدوان. ويؤكد للرأي العام العربي سوء نواياها من وراء تقديم مشروع أيزنهاور(١٤٩).

وفي شهر يونيو ١٩٥٧، أعلنت فرنسا موافقتها على مرور سفنها في قناة السويس وأعقب ذلك إعلان مصر قبولها الولاية الجبرية لمحكمة العدل الدولية فيما يتعلق بتفسير وتطبيق اتفاقية ١٨٨٨ على ضوء ما ورد في بيان ٢٤ أبريل ١٩٥٧. وفي سنة ١٩٥٨ وقع اتفاق تعويض شركة قناة السويس العالمية، وأوفت مصر بالتزاماتها ودفعت للشركة كافة الأقساط المستحقة عليها(١٥٠).

ثم وجد جمال عبد الناصر الفرصة مواتية وملائمة لإلغاء كل اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ مع المملكة المتحدة، دون انتظار مرور السبع سنوات التي تقضي نصوصها بها. كما أنهى ما اتفق عليه الدكتور محمود فوزي من نقاط ست مع لويد وبينو وهمرشولد، لأن المعتدين أنفسهم خرجوا على تلك النقاط(١٥١).

وفي النهاية فإن الجائزة الاستراتيجية للحرب كلها – وهي المرادف الفعلي للنصر– قناة السويس في هذه الحالة – ظلت ملكية كاملة لمصر بأهميتها وبدورها وبدخلها.

يبقى في النهاية عنصر الإدراك الواعي للمناخ الوطني والإقليمي والدولي. وبالنسبة للمناخ الوطني فلقد وضع ثقته منذ اللحظة الأولى للأزمة في الشعب المصري، وجرى توزيع السلاح بمئات الآلاف من القطع على أفراد الشعب وأحس الناس أنهم في المعركة شركاء في المصير –بل هم أصحابه(١٥٢). وكان واثقًا أن مجمل الأحداث منذ قيام الثورة قد خلق حالة من الوعي والتأهب وصلت إلى أرقى درجاتها، وحين إطلق صيحة القتال دفاعًا عن الوطن لم تسمع في مصر على مستوى الجماهير صيحة غيرها وإلى النهاية(١٥٣).

وبالنسبة للمناخ العربي فلقد أدرك أن شعوب الأمة العربية كلها وصلت إلى درجة عالية من التعبئة خلال مواجهة ممتدة ضد الأحلاف وضد احتكار السلاح وضد مخططات سيطرة القوى الكبرى(١٥٤). ولم ينتظر عبد الناصر طويلاً فإن ضغط الشارع العربي المندفع على القصور العربية المترددة ولَّد طاقات لا حدود لها في المنطقة وخارجها من "داكا" (باكستان الشرقية- بنجلاديش) إلى "داكار" (السنغال) وأصبحت لندن بالفعل عاصمة تحت الحصار من الخارج وحتى من الداخل، وتصدع "حلف بغداد"، بل وكاد "الكومنولث" نفسه أن يتصدع تحت وطأة الأحداث(١٥٥).

وأحس عبد الناصر بأبعاد التناقض بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وعلم أنه مجرد تناقض في الوسائل وليس في الأهداف، ومع ذلك فقد بدا له من تناقض الوسائل ما يمكن استغلاله إلى أقصى درجة. كما رأى أن الاتحاد السوفيتي أمام منعطف مهم، فإما أن يخرج نهائيًا من عزلته التي أطل منها مجرد إطلاله على الشرق الأوسط بعد صفقة السلاح، وإما أن يعود إلى عزلته القديمة. ورجح أن القيادة السوفيتية لن تترك الفرصة تفلت، لتقفز فوق الحزام الشمالي وتؤيد حركات التحرر الوطني في العالم العربي. كما وجد عبد الناصر رصيدًا كبيرًا من الصداقات، التي عقدها مع رجالات دولة من أمثال تيتو ونهرو وسكارنو، ثم استغل منابر الأمم المتحدة في لحظة تاريخية موائية(١٥٦).

ثم اكتشف عبد الناصر بسرعة فائقة أهمية الأمم المتحدة في لحظة خاصة من تاريخها، فإن توافق القوتين الأعظم ظاهريًا على الأقل في تحركات الأزمة أعطى المنظمة الدولية ولأمينها العام بشخصيته المتميزة في ذلك الوقت دورًا استثنائيًا سواء كأداة فعل أو أداة تعبئة، ومشى عبد الناصر بهذا الدور إلى مداه(١٥٧).

ومن المؤكد أن مصر وعبد الناصر شخصيًا قد كسبا بالفعل أكثر مما خسرا بحرب السويس عام ١٩٥٦، فقد تأكدت سيطرة مصر وإدارتها لقناة السويس. وبفضل التأييد المعنوي الذي قدمته الأغلبية الساحقة من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة أحبط عبد الناصر كل مخططات إيدن وموليه للإطاحة به وحمله على التخلي عن ثمار تأميم شركة قناة السويس. ورغم أن إسرائيل استفادت بدورها من إغلاق خليج العقبة، إلا أنها اضطرت هي وحلفاؤها في العدوان إلى الانسحاب من كل بوصة من الأراضي المصرية التي كانت جيوشها قد غزتها[١٥٨].

بيد أن أهم ما تمخضت عنه الحرب من نتائج كان يكمن في تأثير نجاح عبد الناصر في تحويل الهزيمة إلى نصر على علاقاته ومكانته في العالم العربي[١٥٩]. ولم يكن تألق نجم عبد الناصر وذيوع صيته الذي بلغ أجواز الفضاء أمرًا لا يستحقه، لأنه مهما كانت أخطاء مصر في ميدان القتال فإن خطواته السياسية طوال الأزمة كانت بلا أخطاء في الواقع. فمنذ اللحظة التي أعلن فيها تأميم شركة القناة عمل جاهدًا على ألا يهيئ مطلقًا أية ذريعة للتدخل المسلح من جانب دولة من الدول المنتفعة بالقناة، ومع أنه رفض مقترحات منزيس الخاصة بفرض إشراف دولي على القناة إلا أنه كان على استعداد دائم لتجربة وسائل أخرى للتوصل إلى تسوية متفق عليها. وبعدئذ وافق في شهر أكتوبر، بعد أن أشار عليه أصدقاؤه العرب وغيرهم مثل تيتو ونهرو ببذل جهد آخر لحل المشكلة، على أساس للمفاوضات لم يستطع حتى وزيري خارجية بريطانيا وفرنسا أن يرفضاه باعتبار أنه لا يقدم حلاً. ولذلك، فعندما وقع عليه العدوان الثلاثي كان في أقوى موقف يمكنه معه أن يطلب من الرأي العام أن يهب لنجدته. ومع ذلك ورغم كل هذه العوامل المساعدة له بما في ذلك التأييد المعنوي من جانب الدولتين الأعظم الولايات المتحدة

والاتحاد السوفيتي، كان يعرف نقاط الضعف في موقفه ويسلم بهـا، وهكـذا فعندما اقتضت الضرورة ذلك كان على استعداد لتقديم تنـازلات لهمرشـولد وللولايات المتحدة مثلما كان مستعدا لاستغلال قوته كما كان واثقاً من أنه لا يمكن دحض حجته. وباختصار كان أداء عبد الناصر أداء شخص محنك في فن التعامل الدبلوماسي، وهو ما يدل على ألمعية وبراعة(١٦٠).

نتائج حرب العدوان الثلاثي

كانت معركة السويس بؤرة تركيز تجمعت فيها كل أماني مـصر فـي الاستقلال الوطني والتنمية الاقتصادية الاجتماعية والتوحد مع عالمها الـذي تنتمي إليه، وفيها اكتشف الشعب المصري طاقاته الكامنة ومـصادر قوتـه الحقيقية. والواقع أن الشعب المصري كان هو البطل الحقيقي لهذه الحرب فقد وقف متماسكًا وصلبًا ومصممًا في مواجهة جبروت أكبر الإمبراطوريات، في الفترة ما بين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ إلى ٧ نوفمبر ١٩٥٦ – ولو أنه تردد لحظة في هذه الأيام العشرة العصيبة أو ضعف لحظة أو اهتز إيمانه لحظة لما كان هناك جدوى من أي شيء – لا من قيادة جمال عبد الناصر، ولا من تضامن بقية شعوب الأمة العربية، ولا من تعاطف الشعوب الآسيوية والأفريقية، ولا من مواقف الأمم المتحدة، ولا من سياسات الولايات المتحدة، ولا من الإنذار السوفيتي. وقد كانت المقاومة المـصرية فـي مواجهـة المـوارد العديـدة والتكنولوجية المتفوقة للغزاة، حاسمة، وواسعة الحيلة وتميزت ببسالة منقطعة النظير(١٦١).

ومع مصر في نفس اللحظة وعـى العـالم العربـي حقـائق موقعـه وضرورات وحدته ومكامن قوته ومجالات عمله وأولها أن الفعل الحقيقـي للجماهير وليس لغيرها. ولقد أثبتت الأمة العربية في الـسويس أن أحلامهـا

صحيحة وأن الدفاع عنها ممكن، وليس مهمًا أننا شهدنا فيما بعد تراجعًا عن الأحلام وقصورًا في الدفاع عنها فعندما تثبت القوانين تصبح مخالفتها جرائم يستحق حسابها في يوم من الأيام، لكن القوانين نفسها لا تسقط! (١٦٢)

ففي الغرب أفل نجم إمبراطوريتين (بريطانيا وفرنسا) وتحولت كلتاهما إلى دول تجارية أو دول صناعية، ولكن العصر الإمبراطوري بالنسبة لهما انتهى في السويس(١٦٣). وبذلك تحول الاستعمار الاحتلالي إلى إمبريالية احتكارية، لا تحتل أرضًا ولا تبنى معسكرات برية أو قواعد جوية أو موانى حربية لتفرض هيمنتها على ضحاياها من الدول الصغيرة، بل سارت تسيطر على مواردها الطبيعية، وتحتكر ثروتها الوطنية، وتتحكم في اقتصادها عن طريق البنوك ذات الفروع عبر القارات، والشركات متعددة الجنسية، فالمؤسسات عبر البحار التي باتت تشكل كلها مجالاً رحبًا، لنهب خيرات الشعوب واستلاب موارد الدول الصغيرة التي لا تملك ترسانات نووية، ولا أسلحة حرب الفضاء(١٦٤).

وفي الوقت الذي أفل فيه نجم إمبراطوريتين، صعد نجم قوة إمبراطورية جديدة هى الولايات المتحدة الأمريكية – كانت قد برزت بدورها أثناء الحرب العالمية الثانية ضد النازية وبعدها لكنها لم تلبث أن تورطت في حرب كوريا ثم أعطتها السويس مسرحًا جديدًا في الشرق الأوسط تبدأ منه بداية أخرى(١٦٥).

وبالسويس خرج الاتحاد السوفيتي لأول مرة بعد عزلة عصر "ستالين" ليمارس دورًا عالميًا نشيطًا وحيًا، فقد قفز عبر الحزام الشمالي للشرق الأوسط ولم تعد المواجهة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية مواجهة تقتصر على ما وراء خنادق ومتاريس الكتلة الشرقية وإنما أصبحت ذراعًا حيًا وساخناً ذابت فيه ثلوج الحرب الباردة وتعددت مواقعه التي تداخلت

حركاتها وتنوعت أساليبها وأهدافها فشملت العالم الثالث كله مع تركيز خاص على الشرق الأوسط الذي أصبح المنطقة الحرجة في المواجه العالمية سياسيًا واقتصاديًا واستراتيجيًا وفكريًا – ووراء الشرق الأوسط أفريقيًا[١٦٦].

ونجحت مصر في إدارة قناة السويس، إذ ارتفع مجموع حمولة السفن التي تعبر القناة يوميًا من ٣٩٣,٠٠٠ طن عام ١٩٥٧ إلى ٥١٢,٠٠٠ طن عام ١٩٦١، ثم ظل هذا الرقم يزداد ارتفاعًا كل يوم منذ ذلك التاريخ. كما وصلت الإيرادات السنوية التي كانت ٣١ مليونًا و١٠٠ ألف جنيه إسترليني عام ١٩٥٥ إلى ٥٠ مليون و٤٠٠ ألف جنيه إسترليني عام ١٩٦٠، وذلك دون إضافة أية زيادة على رسوم المرور في القناة[١٦٧].

وأجريت تحسينات ضخمة في القناة، كما تم رفع نحو مائة مليون متر مكعب من الرمال من مجراها، فتطورت القناة، ونتج عن ذلك الانتقال من حالة عدم صلاحية خدمة السفن التي لا يزيد عمق غاطسها على عشرة أمتار وواحد وخمسين سنتيمترًا، لأن تصبح صالحة لمرور السفن التي يبلغ عمق غاطسها ١١,٢٧ مترًا ثم ١٢,١٩ مترًا، كما اتسع سطح القناة حتى وصل عرضه إلى ٢٠٠ متر، ولا يزال هذا الرقم في ازدياد مطرد[١٦٨]. وتمت كل تلك التحسينات بواسطة قروض، حصلت عليها مصر من البنك الدولي، وقد بلغ حجمها خلال الأعوام الستة التي تلت العدوان الثلاثي ثلاثة أمثال التحسينات التي قامت بها الشركة العالمية لقناة السويس خلال السبعين عامًا السابقة على التأميم[١٦٩].

وهكذا عادت القناة لأصحابها الشرعيين وأصبحت ملكًا خالصًا وكاملاً لمصر، وعائداتها أصبحت تعود لها مباشرة دون شريك. ونجحت الإدارة المصرية للقناة في إدارتها وزيادة الملاحة بها[١٧٠].

كما نتج عن العدوان الثلاثي على مصر أن تمكنت الحكومة المصرية من تحرير اقتصادها الوطني، بتمصير المؤسسات الأجنبية وفتح الأسواق التجارية مع آسيا ودول الكتلة الشرقية، والتحرر الفعلي من سيطرة رأس المال الأجنبي(١٧١).

كما قامت مصر أيضًا بعد انتهاء الحرب بتمصير كل البنوك الإنجليزية والفرنسية وشركات التأمين. وكذا كل الشركات الأخرى التي كانت تمارس نشاطًا تجاريًا أو إنتاجيًا. وأصبحت تلك الشركات تدار بفنيين مصريين. وتحرر بذلك اقتصادنا من السيطرة الأجنبية عليه. وساعد ذلك في تدعيم استقلالنا السياسي. وتم إنشاء المؤسسة الاقتصادية لتقوم بالإشراف على أعمال تلك البنوك والشركات(١٧٢).

ويذكر عبد اللطيف البغدادي: "وتم أيضًا استيلاؤنا على كل الأسلحة والمهمات والموجودات البريطانية والتي كانت لا تزال موجودة بمخازنهم في منطقة القناة – ولم يكن قد تم سحبها بعد تطبيقنا لاتفاقية الجلاء التي كانت قد وقعت معهم في أكتوبر ١٩٥٤- واستولى عليها كغنائم حرب. بل إن الاتفاقية نفسها والتي كانت تنتهي مفعولها بعد سبع سنوات من تاريخ توقيعها اعتبرناها ملغاة من أول يناير ١٩٥٧. وأن مصر أصبحت غير ملزمة ولا مقيدة بما كان قد جاء بها بعد هذا الاعتداء عليها. ولأن ما حدث قد نقض الاتفاقية نفسها"(١٧٣).

ويرى إيمري هيوز – عضو مجلس العموم البريطاني – أن هزيمة بلاده في حرب السويس حملت الخزانة البريطانية عبئاً ثقيلاً.. فيقول: "ويدعونا العجب أن نتساءل: ألم يفكر ماكميلان بصفته وزيرًا للمالية ومسئولاً عن الشؤون المالية فيما يحتمل أن تؤدى إليه حرب السويس من عواقب؟ ألم يكن من واجبه أن يحذر إيدن ووزارته من أن هذه المغامرة سوف تكون كارثة

على بريطانيا؟ لو أن ماكميلان بصفته وزيرًا للمالية أشار – ولو من طرف خفي – إلى أنه سوف يستقيل لو واصلت الحكومة البريطانية استعداداتها للهجوم المسلح على مصر، لتوقف كل شيء"(١٧٤).

ويحمل إيمري هيوز، ماكميلان مسئولية تأييد حملة قناة السويس، وما سببته من تدهور للاقتصاد البريطاني، للحد الذي وصل بإيدن أن يبدى استعداده لرهن التحف الفنية البريطانية للإنفاق على مغامرة السويس. بل إن الجنيه الإسترليني قد أصيب بهزة عنيفة في السوق الدولية، ولولا دعم الولايات المتحدة للمملكة المتحدة بألف مليون دولار لانهار الجنيه الإسترليني(١٧٥).

وطبقًا لتقديرات حزب العمال لتكلفة الغزو البحري الأنجلو فرنسي، وما صرف عليه من خزينة المملكة المتحدة، والمنشورة في كتاب الشؤون الخارجية، حيث بلغت جملة الإنفاق فيما بين أكتوبر وديسمبر ١٩٥٦، ٢٣٤ مليون جنيه إسترليني، فإذا ما أضيفت إليها هبوط الإنتاج الوطني وقيمة الأسلحة، والمعدات بالقاعدة البريطانية بقناة السويس التي استولت عليها مصر كغنيمة حرب تصبح التكلفة الإجمالية للعدوان الأنجلو فرنسي على الخزانة البريطانية ٣٢٨ مليون جنيه إسترليني(١٧٦).

لقد أبلغ ماكميلان بصفته وزيرًا للمالية، مجلس العموم البريطاني أن الضغط على الجنيه الإسترليني اشتد منذ بداية نوفمبر ١٩٥٦، وأن الاحتياطي البريطاني من الدولار هبط بمقدار ٥٧ مليونًا في سبتمبر و٨٤ مليونًا في أكتوبر، و ٢٧٩ مليونًا في نوفمبر، وهذا الرقم يعادل ١٥% من احتياطي بريطانيا الكلي من الذهب والدولار(١٧٧).

وفي شهر نوفمبر ١٩٥٦ ساد الذعر دوائر الخزانة البريطانية، حتى لقد أبلغ المسئولون فيها ماكميلان، يوم ٦ نوفمبر، أن هبوط الإسترليني قد

زاد لدرجة أنه أصبح يساوى ٢,٧٨ من الدولار فقط، أما المدخرون للإسترليني فقد بدأ يتسرب الخوف إلى نفوسهم مما سوف تكون عليه حال العملة فيما بعد. وقد أخذت الدوائر المالية الأمريكية تمارس كل أنواع الضغط على الحكومة البريطانية، واضطر ماكميلان إلى أن يرسل برقية لواشنطن يتوسل أن تمنح بريطانيا قرضًا قدره ألف مليون دولار، وذلك لإنقاذ الإسترليني، وردت أمريكا في اليوم نفسه بأنها على استعداد لمنح القرض، بشرط أن توافق بريطانيا على وقف إطلاق النار حتى منتصف الليل، وكان في هذا الرد فصل الخطاب، فقد أرغمت الوزارة البريطانية على قبوله، وبذلك انتهت أزمة السويس(١٧٨).

أما على الجانب الفرنسي: فعقب حملة السويس، قطعت الحكومة المصرية العلاقات التجارية والاقتصادية مع فرنسا، وكان ذلك بمثابة ضربة قاضية للنشاط الفرنسي في مصر في المجالات التجارية والصناعية. وقدر مجموع الخسائر الفرنسية في القطاعين الصناعي والتجاري نحو ٤٠٠ مليار فرانك قديم، أي نحو أربعة مليارات فرانك جديد. فقد وضعت الحكومة المصرية أربعة بنوك فرنسية كبرى، هى: بنك الكريدي ليونيه، والكونتوار ناسيونال دي باري، والبنك العثماني، والكريدي دوريان تحت الحراسة، وكذلك شركة الرهونات المصرية وتسع شركات فرنسية للتأمين وفروعها والمصالح الفرنسية في ثلاث مؤسسات للائتمان العقاري، والشركة العامة لتكرير السكر، ومعامل تكرير البترول، والشركة المصرية للبترول وثلاثة مصانع تعتمد على شركة الغاز السائل وغيرها(١٧٩).

وشملت الخسائر أيضًا العقود الصناعية، التي فقدها الفرنسيون، وهذه العقود تضمنها الاتفاق، الذي وقعته مصر وفرنسا في مارس ١٩٥٤، وتشمل تكليف شركة كهرباء فرنسا القيام ببحوث عامة لإنتاج واستخدام الطاقة

الكهربائية في مصر، وإنشاء مصنع للأسمدة الأزوتية في أسوان، وإنشاء شبكة كهربائية في القاهرة. وقيمة هذا العقد ٦٠٠ مليون فرانك – وإنشاء محطة كهربائية في شبرا وقيمت هذا العقد ٥٠ مليون فرانك، وتوريد ٢٠٠ ألف من العوارض الخشبية اللازمة للأشغال البحرية، وقيمة هذا العقد ٣٣٦ مليون فرانك، وإنشاء خمسة خزانات للبترول، سعت كل منها عشرة آلاف متر مكعب في القاهرة، وإنشاء عشرين قاطرة سكة حديد طراز باسيفيك لخط القاهرة – الإسكندرية .

ومهما يكن من شأن هذه الخسائر الفادحة، فإنها لا تشمل غير ناحية واحدة من القصة كلها. وقد بذلت جهود ضخمة فيما بعد للتخفيف من آثارها، أسفرت عن عقد اتفاقية في زيوريخ يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٨، إعادة العلاقات الاقتصادية والمالية والثقافية بين فرنسا ومصر لحالتها الطبيعية، ولكن ذلك حدث بعد مضى شهر من عقد تسوية بين الحكومة المصرية، وبين الشركة العالمية لقناة السويس .. وبعد مضى شهر أيضًا من تولى حكومة جديدة الحكم في فرنسا. وقد نصت اتفاقية زيوريخ – بصفة خاصة – على إنهاء التدابير الخاصة التي اتخذت ضد الرعايا الفرنسيين في مصر، ورفع الحراسة عن ممتلكاتهم، وإعادتها إليهم، أو دفع قيمتها لهم .

وكذلك كانت للعدوان نتائج كبيرة على منطقة الشرق الأوسط، تلخصت في تدخل الولايات المتحدة في الشئون الاقتصادية للمنطقة، عن طريق تقديم الإعانات لبعض دولها، بعد أن تقلص النفوذ الأنجلو فرنسي فيها، كما بدأ الاتحاد السوفيتي يتسلل للمنطقة، عن طريق المساعدات الاقتصادية والإنمائية لدول المنطقة، وكذلك صفقات الأسلحة والمعدات الحربية .

وتلخصت نتائج العدوان الثلاثي في المجال الاقتصادي، في خسارة دول العدوان اقتصاديًا، وتصدع الإنتاج العام في أوروبا للافتقار إلى البترول..

بالإضافة إلى الاتجاه إلى إنشاء خطوط أنابيب جديدة بين الخليج العربي والبحر المتوسط عن طريق أراضي حلف بغداد، واتجاه المملكة المتحدة إلى خفض مصروفاتها، والتوسع في تجارتها مع الصين الشعبية، مما ضاعف من حرج الولايات المتحدة وزاد قلقها.. وأنشئت السوق الأوروبية المشتركة لدول غرب أوروبا، ونشطت محاولات استغلال الطاقة الذرية في غرب أوروبا، لتوليد القوى المحركة بأسرع ما يمكن كمصدر بديل للنفط.

وامتدت نتائج العدوان الثلاثي على مصر إلى الدول التي كانت مغلوبة على أمرها والخاضعة للسيطرة الاستعمارية، فزاد اقتناعها بأن أسلوب القرن التاسع عشر واستخدام القوة العسكرية في إسكات الحركات الشعبية التحررية قد عفا عليه الزمان – فزاد نشاط الحركات التحررية. ولم تقف مصر ساكنة حيالها بل امتدت يد المساعدة إليها لتساعدها على التحرر من الاستعمار إيمانًا منها بأن تحرير تلك البلاد منه يدعم استقلال مصر السياسي ويؤمنه أيضًا.

ومجمل القول إن ذلك العدوان الثلاثي ترك وراءه ست نتائج ذات أهمية بالغة، تتلخص في أنه رفع الرئيس جمال عبد الناصر من مرتبة رئيس دولة نامية إلى مصاف زعماء العالم الثالث ذوى الكلمة المسموعة والمنزلة العالمية الرفيعة.

وأنه أنهى – بغير عودة – دبلوماسية "مدفع البارجة، التي استمر الاستعمار الأنجلو فرنسي يستخدمها مائة عام أو يزيد، لقلب حكومات دول العالم الثالث وفرض إرادته عليها. كما أدخل تغييرًا جذريًا، على طبيعة العلاقات بين العالم القديم والعالم الحديث بما أجبر الدول العظمى والكبرى، على التحول عن أسلوب السيطرة المباشرة إلى السيطرة غير المباشرة، على مقدرات الشعوب النامية. كما أن العدوان أحيا في العالم الثالث آمال العزة

الوطنية والانتماء إلى نفس القضايا، التي تربط بين دوله وشـــعوبه، نتيجـــة وحدة مصالحها ووحدة مصادر الخطر عليها. وأثبت أن مصر ليست أكبـــر دولة عربية فقط، بل هى رأس الأمة العربية وضميرها الحي وعقلها المفكر، وأنه بقيادة مصر ينتظم النضال العربي كله.

وأخيرًا أثبت العدوان أن إسرائيل هـــى وكيلـــة للإمبرياليـــة، وعميلهـــا الاحتكاري في الوطن العربي، وهى مخلب القط والصنيعة الجـــاهزة علـــى الدوام لحماية مصالح الدول الاستعمارية في الشرق الأوسط حتى ولو تطلب الأمر أن تشعل فيه الحروب بالوكالة عن تلك المصالح الاستعمارية.

obeikan.com

الخلاصـــــــة :

كانت معركة السويس بؤرة تركيز تجمعت فيها كل أماني مـصر فـي الاستقلال الوطني والتنمية الاقتصادية الاجتماعية والتوحد مع عالمها الـذي تنتمي إليه، وفيها اكتشف الشعب المصري طاقاته الكامنة ومـصادر قوتـه الحقيقية.

لقد كان أنتوني ناتنج – وزير الدولة البريطاني للشئون السياسية إبـان أزمة السويس – بعيد النظر وصافي الفكر والذهن إلى أبعد حد حينما اختار لكتابه الشهير عن السويس عنوانًا يقول "لا نهايـة للـدرس" No End of a Lesson. هكذا رأى حرب السويس وهكذا نراها معه: درسًا لا نهاية له.

كان أنتوني ناتنج يعني في كتابه "درس السويس" الطرف البريطـاني، ونحن معه في ذلك ولكننا نراها درسًا لكل الأطراف، والطـرف المـصري أولهم وأحقهم.

إن الدرس الأساسي للسويس هو أن مصر تعلمت أنها يمكن أن تكون مستقلة.. وأن بريطانيا وفرنسا قد تعلمت أنهمـا لـم يـستطيعا أن يكونـا مستقلتين؛ لأن العالم لم يعد محكومًا بالاستقلال بصفة مطلقة لأن هناك عاملاً قويًا هو التضامن بين المستقلين المتكافئين.

استطاعت مصر أن تحارب وأن تنتصر فـي صـراع الـسويس لأن تضامنها مع العالم العربي وتعاطف شعوب العالم الخارجي معها بما في ذلك الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ساعدها على تحقيق النصر.

ولكن بريطانيا وفرنسا بالطبع، بتصرفهما المنفـرد، وجـدا نفـسيهما منعزلتين في الأمم المتحدة، بل وعلى صعيد العالم كله.. وعندئذ وجدا أنهما لا يستطيعان المضي في فعلتهما.

وفي أعقاب السويس قررت السياسة البريطانية أن تأخذ موقفًا سلبيًا مطلقًا في الشرق الأوسط، وأن تنضوي تحت العباءة الأمريكية، وأن تؤيد كل حركة تصدر عن واشنطن أيًا كان سوء هذه الحركة و أيًا كان انحيازها.

خرجت فرنسا من التجربة تبحث عن بديل. ولم يمض عام إلا وسقطت الجمهورية الثالثة وعاد "ديجول" يؤسس الجمهورية الرابعة وهو يدرك أن فرنسا لم تعد تستطيع أن تعتمد على الرادع النووي الأمريكي إذا كان لها أن تحتفظ باستقلالية قرارها السياسي، وهكذا ولدت قوة الضرب الفرنسية المستقلة ووراء ذلك ظهرت احتمالات أوروبا الغربية كقوة نصف مستقلة على الأقل.

إن الدرس الذي استوعبته فرنسا استوعبته الصين أيضًا وهكذا راحت بدورها تسعى إلى دخول النادي النووي لكي تصبح قوة عظمى بإمكانياتها الذاتية.

أحدثت السويس تحولاً هامًا في سياسة إسرائيل فقد راحت من يومها توجه اهتمامها شطر النجم الأمريكي البازغ وتلحق نفسها به. وكان ذلك بداية ظهور دور الشرطي المحلي الذي كررت الولايات المتحدة نموذجه بعد ذلك كثيرًا في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وإن بقيت للشرطي الإسرائيلي مكانة مميزة لأسباب عديدة آخرها أنه أصبح شرطيًا نوويًا – لأول مرة في تاريخ الشرطة.

وكانت السويس هى العلامة البارزة في حركة التحرر الأفريقي، ويكفي للدلالة على ذلك أن "هارولد ماكميلان" رئيس الوزراء الذي خلف "إيدن" لم يسبق له ذكر سياسي غير خطابه المشهور عن رياح التغيير في أفريقيا والذي كان معناه تصفية بقايا الإمبراطورية في أفريقيا.

وكان إلهام السويس عميقًا في أمريكا اللاتينية، وقد ذكر الزعيم الكوبي فيدل كاسترو، أنه كان يتابع مع رجاله في جبال كوبا، أخبار الغزو البريطاني الفرنسي الإسرائيلي لمصر، ومقاومة الشعب المصري الباسلة له، ويخطب في رجاله قائلاً: "إذا كان في استطاعة شعب صغير كالشعب المصري التصدي لإمبراطوريتين – ولدولة تابعة – أفلا نستطيع نحن أن نتصدى لدكتاتور تابع وهو الجنرال باتيستا".

وظهرت حقائق كثيرة من حرب السويس.. منها أن عصر الحملات الاستعمارية قد انتهى تمامًا، وانتهت أساليبه وأبرزها دبلوماسية المدافع البحرية. وتأكدت استحالة الحرب النووية. واكتشف الجميع بالتجربة العملية أن التدخل المباشر ضد الآخرين ينطوي على احتمالات صعبة، وخرج الكل يدرس أن العمل غير المباشر أكثر أهمية – وربما أقدر على التحقيق – من العمل المباشر.

كانت تلك دروس السويس، التي اضطرت قوات العدوان إلى الانسحاب تحت ضغوط هائلة وبعد عناد عقيم شبهه "راندولف تشرشل" – ابن ونستون تشرشل – بأنه كان أشبه ما يكون بعناد "هتلر" في سحب قواته من "ستالنجراد" حتى فات الأوان.

وبعد دراسة الآثار والنتائج والدروس المستفادة من السويس، نعود إلى الأهداف الاستراتيجية الأساسية في أزمة السويس وحرب السويس لكي نرى من حقق الأهداف؟ ومن انتصر؟.

كانت بريطانيا تريد القناة وإخضاع مصر وقتل رئيسها وقائد مسيرتها، وكانت فرنسا هى الأخرى تريد الخلاص من عبد الناصر لتقضي على قاعدة الثورة الجزائرية قبل أن تريد شركة قناة السويس، ولم تستطع بريطانيا ولا فرنسا أن تحققا أهدافهما.

وكانت السياسة الأمريكية تريد محاصرة عبد الناصر استعدادًا للقضاء عليه ليخلو لها الطريق أمام دخولها المنطقة استعدادًا لربط دولها بـالأحلاف الأمريكية، بل كان هدفها الأساسي بعد الخلاص من عبد الناصر هو إرثهـا لممتلكات الإمبراطورية البريطانية وكذا فرنسا.

وكانت إسرائيل تريد ضرب مصر لتسكت صوت القوميـة العربيـة والوحدة العربية.

كانت تلك هى أهدافهم الاستراتيجية في الأزمة.. ولم تستطع سياستهم ولا آلتهم الحربية أن تحقق واحدًا منها. وأما الهدف الاستراتيجي المـصري وهو احتفاظ الشعب المصري بملكيته لشركة قناة السويس وإدارتها لـه فقـد بقى ذلك الهدف حتى هذه اللحظة أهم منجزات السياسة المصرية، وفـشلت جميع المحاولات الغربية في النيل منه، فضلاً عن أن مصر خرجت من هذه الأزمة بعطف دولي هائل استطاع أن يخترق حتى الرأي العام لدول العدوان ذاتها وربما كان سببًا في إزاحة العديد من القيادات المتـآمرة علـى مـصر وشعبها وقيادتها وأهدافها العظيمة.

الهوامش

(١) Finer, Herman. Dulles over Suez, London 1964 PP. 68 -69, see also,

وزارة الخارجية المصرية، الكتاب الأبيض في تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٦، ص ص ٥٥ – ٥٦.

(٢) Robertson, Terence . Crisis, London 1964, PP. 87 – 88.

(٣) وثائق ندوة السويس الدولية – معركة السويس، ثلاثون عامًا، دار الشروق – الطبعة الأولى ١٩٨٩، ص ٢٧٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٥) المصدر السابق، ص ص ٢٧٦ – ٢٧٧.

(٦) نانتج، انتوني: ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد – دار ومكتبة الهلال بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة – الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ٢٠٧.

(٧) مقابلة مع الوزير السابق ثروت عكاشة بمنزله بالدقي يوم ٥ أغسطس ٢٠٠٦، انظر كذلك:

Neff, Donald. Warrious At suez – Eisenhower Takes Ameruca into Middle East, London 1990, P P 40 – 41.

(٨) وثائق وزارة الدفاع المصرية– وثائق المحفوظات العسكرية، برقية شفرية مرسلة من الملحق العسكري بتركيا زكريا العادلي إمام يوم ٦ أكتوبر إلى اللواء محمد عبد الحكيم عامر، استلمها مدير مكتبه البكباشي توفيق عبد الفتاح.

(٩) وثائق وزارة الدفاع المصرية، المصدر السابق، رسالة سرية أرسلها الملحق العسكري المصري بتركيا مع الملحق الإداري المصري بالسفارة الذي توجه للقاهرة، وسلمها إلى المخابرات الحربية المصرية يوم ١٥ أكتوبر ١٩٥٦.

(١٠) مقابلة مع اللواء حسن البدري بمنزله بمصر الجديدة يوم ١٥ مارس ١٩٩٦. وكان اللواء حسن البدري على علاقة قوية بالبكباشي زكريا العادلي إمام.

(١١) أحمد حمروش: مصر والعسكريون، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٥، ص ص ٩٩ – ١٠٠.

(١٢) مقابلة مع اللواء حسن البدري، مقابلة سبق ذكرها.

(١٣) أحمد حمروش، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(١٤) حسن البدري وفطين أحمد فريد: حرب التواطؤ الثلاثي – المكتبة الأكاديمية القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص ٦٥٤.

(١٥) صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، دار المعارف بمصر– الطبعة الأولى ١٩٧٠، ص ص ١٥٦ – ١٥٧.

(١٦) محمد حسنين هيكل: ملفات السويس، مطابع الأهرام – الطبعة الأولى ١٩٨٧، ص ٤٩٥.

(١٧) ناتنج، انتوني: ناصر، ص ٢٠٨، انظر كذلك: نيف، دونالد: حرب السويس، ترجمة أحمد خضر وعبد السلام رضوان – مكتبة مدبولي – القاهرة ١٩٩٠، ص ص ٥٣٧– ٥٣٨.

(١٨) المصدر السابق، نفس المكان، انظر كذلك وثائق المحفوظات العسكرية المصرية، قرار توحيد الجبهة المصرية الصادر من اللواء أركان الحرب محمد عبد الحكيم عامر سعت ٢٢٠٠ يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦،

Nutting, Antony. No End of Alesson, The story of Suez, London, 1967,P P. 155-156, Dupuy, Trevor N. Elusive victory, London, .1978, P P. 190-192

(١٩) ناتنج، انتوني: ناصر، ص ٢٠٩.

(٢٠) المصدر السابق، نفس المكان.

(٢١) المصدر السابق، نفس المكان.

(٢٢) محمود رياض: مذكرات محمود رياض، الجزء الثاني، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٥٥.

(٢٣) المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٢٤) دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ترجمة المخابرات العامة ١٩٦٥، ص ص ٥٦– ٦٧، انظر كذلك دايان، موشي: قصة حياتي، الجزء الأول، الترجمة العربية رقم ٧٣٠، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٧٥– ٧٦.

(٢٥) ناتنج،أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية –معركة السويس، ثلاثون عامًا، دار الشروق– الطبعة الأولى ١٩٨٩، ص ١٦٦، انظر كذلك ناتنج، أنتوني: درس لا نهاية

له.. قصة السويس، مصلحة الاستعلامات – الترجمة العربية رقم ٥٩٠، ص ص ٤٨- ٤٩.

(٢٦) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية –ثلاثون عامًا، ص ص ١٦٦- ١٦٧، انظر كذلك دوبوى، تريفور. ن: النصر المحير،الترجمة العربيةرقم ٧٦٨، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٢٣٤- ٢٣٩.

(٢٧) محمد حافظ إسماعيل، أمن مصر القومي في عصر التحديات، مركز الأهرام للترجمة والنشر – الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٧، ص ٦٨.

(٢٧) عبد اللطيف البغدادي، مذكرات عبد اللطيف البغدادي، الجزء الأول، المكتب المصري الحديث، الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٧٧، ص ص ٣٥٣- ٣٥٤.

(٢٨) ناتنج، أنتوني: ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، ص ٣١، انظر كذلك محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، ص ٦٨.

(٢٩) عبد اللطيف البغدادي، المصدر السابق، ص ٣٦٥.

(٣٠) محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣١) وزارة الحربية، شعبة البحوث العسكرية – القيادة العامة للقوات المسلحة، حرب العدوان الثلاثي على مصر – خريف سنة ١٩٥٦، الجزء الأول، مطابع القوات المسلحة ١٩٦٥، ص ص ٦٥- ٦٧.

(٣٢) وزارة الحربية، وثائق المحفوظات العسكرية –غير منشورة- ملف رقم ٥٦/٨٥- ملف الخطة تحرير، انظر كذلك مقابلة مع أمين هويدي بمنزله بمصر الجديدة يوم ١٠ أغسطس ٢٠٠٦م. وأمين هويدي كان يشغل في ذلك الوقت رئيس فرع التخطيط بالقيادة العامة.

(٣٣) محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، نفس المكان.

(٣٤) محمد حافظ إسماعيل، المصدر السابق، ص ص ٦٩ – ٧٠.

(٣٥) المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣٦) المصدر السابق، نفس المكان.

(٣٧) بن جوريون، ديفيد. إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الثالث – المخابرات العامة، مركز البحوث والمعلومات، ص ص ١٢٠ – ١٢٢، انظر كذلك دايان، موشي- يوميات معركة سيناء، ترجمة المخابرات العامة ١٩٦٥، ص ص ٧٨ – ٧٩.

(٣٨) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية المصرية، قرار توحيد الجبهة المصرية الصادر من اللواء أركان الحرب محمد عبد الحكيم عامر سعت ٢٢٠٠ يوم ٣١ أكتوبر ١٩٥٦.

(٣٩) دوبوى، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢٥٧.

(٤٠) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية المصرية، ملف رقم ٥٦/٨٥، الخطة المصرية للدفاع عن الإسماعيلية والدلتا.

(٤١) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، المكتبة الأكاديمية. الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص ٦٥٤.

(٤٢) المرجع السابق، ص ٦٥٥.

(٤٣) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٥٦/٢٢ ملف انسحاب قوات سيناء، انظر كذلك وثائق المحفوظات العسكرية، قرار توحيد الجبهة المصرية الصادر من اللواء محمد عبد الحكيم عامر، سبق ذكره.

(٤٣) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٥٦/٢٢ ، المصدر السابق.

(٤٤) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٥٦/١٢٤، خسائر القوات الجوية والدروس المستفادة.

(٤٤) حسن البدري وفطين أحمد، المرجع السابق، ص ص ٦٥٥ – ٦٥٦.

(٤٥) دوبوي، تريقور. ن: النصر المحير، ص ص ١٧٢– ١٧٩.

(٤٦) المصدر السابق، ص ص ٢٠٩– ٢١٠.

(٤٧) وثائق ندوة السويس الدولية – معركة السويس، ثلاثون عامًا، ص ٣٥..

(٤٨) المصدر السابق، نفس المكان.

(٤٩) المصدر السابق، ص ص ٣٥ – ٣٦

(٥٠) وثائق المحفوظات العسكرية، ملف الخطة موسكيتر المعدلة النهائية، ص ١٢.

(٥١) Hugh, Thom. The Suez Affair (Weidenfeld and Nicolson), P. 228.

(٥٢) وثائق الحربية المصرية، ملف رقم ٩٨، التقرير الرسمي للجنرال كيتلي عن العمليات الحربية ضد مصر، نوفمبر – ديسمبر ١٩٥٦، ترجم عن طريق المخابرات الحربية المصرية، ص ٧.

(٥٣) المصدر السابق، انظر كذلك حسن البدري وفطين أحمد، حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٥٩.

(٥٤) وثائق الحربية المصرية، ملف رقم ٩٨، التقرير الرسمي للجنرال كيتلي، ص ص ١٥ – ١٦.

(٥٥) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ص ٦٥٩ – ٦٦٠.

(٥٦) Neff, Donald. Warrious AT Suez, P P 495 – 497.

(٥٧) Dupuy, Trevor. Elusive Victory, P P. 215 – 217.

(٥٨) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف رقم ٥٦/٦٥، ملف بعنوان الدروس المستفادة من العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ومبادئ الحرب، ص ص ٧ – ٨.

(٥٩) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية، ملف ٥٦/١٠٨ ملف بعنوان الإنزال الأنجلو فرنسي في بورسعيد، ص ١٥.

(٦٠) المصدر السابق، ص ص ٢١ – ٢٢.

(٦١) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية – ملف رقم ١٨٨ بعنوان الضربة الجوية الأنجلو فرنسية للقواعد والمطارات المصرية عام ١٩٥٦، انظر كذلك وثائق وزارة الحربية، ملف رقم ٩٨، التقرير الرسمي للجنرال كيتلي، ص ٢٥.

(٦٢) ملف رقم ١٨٨، الضربة الجوية الأنجلو فرنسية.

(٦٣) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، الترجمة العربية رقم ٧٦٨، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ٢٤٠، انظر كذلك مقابلة مع العميد صلاح الموجي بقصره بالجيزة، يوم ٤ فبراير ٢٠٠٤، هرزوج، حاييم: الحروب العربية– الإسرائيلية ١٩٤٨– ١٩٨٢، ص ص ١٦٥– ١٦٦.

(٦٣) بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الثالث، ص ص ١٥٦– ١٧٩، انظر كذلك دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ص ص ١٠٨ – ١١٢، Dayan, Moshe. Story of My Life, London 1971, P P. 98–105. وثائق الحربية

المصرية، ملف رقم ٩٨ وهو مسودة كتاب العدوان الثلاثي على مصر، ص ص ٥٥٠- ٥٧٥.

(٦٤) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ١٦١، انظر كذلك هرزوج، حاييم: الحروب العربية الإسرائيلية، ص ص ١٦٧ – ١٦٨.

(٦٥) دايان، موشي: يوميات معركة سيناء – ترجمة المخابرات العامة المصرية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٩٠، انظر كذلك:

Oballance, Edgar. The Sinai Compaign 1956, London 1959, P P. 155 – 165.

(٦٦) دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ص ١٢٢.

(٦٧) وايزمان، عايزر: على أجنحة النسور، ترجمة المخابرات العامة، القاهرة ١٩٦٦، ص ٨١.

(٦٨) وثائق المحفوظات العسكرية المصرية –غير منشورة– ملف رقم ٥٧/٥٥ تحت عنوان تقييم الجنرال حاييم لاسكوف لحملة سيناء عام ١٩٥٦، ترجمة المخابرات الحربية المصرية، ص ص ٣–٥، انظر كذلك هرزوج، حاييم: الحروب العربية – الإسرائيلية ١٩٤٨–١٩٨٢، ترجمة بدر الرفاعي، سيناء للنشر – الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٦٨.

(٦٩) المصدر السابق، ص ص ١٢ – ١٤.

(٧٠) المصدر السابق، ص ص ١٦ – ١٨.

(٧١) المصدر السابق، ص ص ٢٥ – ٣٢.

(٧٢) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، الترجمة العربية رقم ٧٦٨، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٢٣٠ – ٢٣١. وجهة نظر أخرى.

(٧٣) المصدر السابق، ص ص ٢٣١ – ٢٣٣. وجهة نظر أخرى.

(٧٤) وثائق وزارة الحربية المصرية، وثائق المحفوظات العسكرية – غير منشورة – ملف رقم ٥٧/٢٥ تحت عنوان تقرير البريجادير ستيوارت الملحق العسكري الأمريكي بتل أبيب والمرسل للبنتاجون بتاريخ ١٨ يونيه ١٩٥٧، ص ص ١ – ٢.

(٧٥) المصدر السابق، ص ص ١٥ – ١٧.

(٧٦) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٦٥.

(٧٧) ناتنج، أنتوني: ناصر، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، مكتبة مدبولي بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ١٠٥.

(٧٧) ناتنج، أنتوني: كيف أدار إيدن أزمة السويس، وثائق ندوة السويس الدولية –معركة السويس ثلاثون عامًا، دار الشروق– الطبعة الأولى ١٩٨٩، ص ١٨.

(٧٨) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٧٩) المصدر السابق، نفس المكان.

(٨٠) ناتنج، أنتوني: درس لا نهاية له.. قصة السويس، مصلحة الاستعلامات، الترجمة العربية رقم ٥٩٠، ص ص ٢٧– ٢٨.

(٨١) Lioyd, Selwyn. Suez 1956, London 1978, P. 85.

(٨٢) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٣.

(٨٣) المصدر السابق، ص ص ٢٣ – ٢٤.

(٨٤) أزو، هنري: فخ السويس، ترجمة حسن إبراهيم، دار القاهرة للطباعة والنشر– القاهرة ١٩٦٦، انظر كذلك صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، ص ص ٩٤– ٩٧.

(٨٥) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٤.

(٨٦) المصدر السابق، ص ص ٢٤ – ٢٥.

(٨٧) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٨٨) بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، ترجمة المخابرات العامة، ص ٨٥.

(٨٩) ناتنج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٢٤– ٢٥.

(٩٠) المصدر السابق، ص ٢٥.

(٩١) ناتنج، المصدر السابق، نفس المكان.

(٩٢) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٩٣) Lioyd, Selwyn. Suez 1956, P P. 97 – 98.

(٩٤) Nutting, Anthony: The Story of Suez – No end of a Lesson. London 1978, PP.121–122.

(٩٥) Robertson, Terence, Crisis, London 1964, P. 176.

(٩٦) دايان، موشي: قصة حياتي، الجزء الثاني – الترجمة العربية رقم ٧٣٠، الهيئة العامة للاستعلامات، ص ص ٢٤٤– ٢٤٧، انظر كذلك دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ص ١٧٢– ١٧٣.

(٩٧) جريدة الأهرام، العدد ٣٦٣٤٤ بتاريخ ١٩٨٦/٦/١١، بينو يستعيد ذكرياته، الحلقة الثانية، ص ٥.

(٩٨) بيريز، شيمون: معارك السلام مذكرات منذ مولد إسرائيل حتى صراع السلام، ترجمة المخابرات العامة – القاهرة ١٩٩٥، ص ص ٢٨ – ٣٠، انظر كذلك جريدة الأخبار، العدد ١٣٤١٩ السنة ٥٤٣، بتاريخ الأربعاء ١٩٩٥/٥/١٠، بيريز يعترف، ص ١.

(٩٩) نانتج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٦، انظر كذلك بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، الجز الثالث، ص ص ١٢٠ – ١٢٦.

(١٠٠) نانتج، أنتوني: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٧.

(١٠١) Lioyd, Selwyn. Suez 1956, London 1978, P P. 95 – 97.

(١٠٢) نانتج، أنتوني، المصدر السابق، نفس المكان.

(١٠٣) محمود فوزي:حرب السويس ١٩٥٦، ترجمة دكتور مختار الجمال، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٩٨٧، ص ٩٢، انظر كذلك Lioyd, Selwyn. Suez 1956, PP. 88 - 89.

(١٠٤) بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، الجزء الثالث، ص ١٢٣.

(١٠٥) نانتج، أنتوني، المصدر السابق، ص ٢٨.

(١٠٦) وثائق وزارة الحربية المصرية، ملف رقم ٩٨، ص ص ٤٨١ – ٤٨٢.

(١٠٧) نانتج، أنتوني، المصدر السابق، ص ص ٢٨ – ٢٩.

(١٠٨) محمود فوزي: حرب السويس ١٩٥٦، ص ص ١١٣ – ١١٥، انظر كذلك محمد حسنين هيكل: ملفات السويس، مركز الأهرام للترجمة والنشر– الطبعة الأولى ١٩٨٦، ص ص ٥٧٥ – ٥٧٨.

(١٠٩) فوث، مايكل: حزب العمال البريطاني والعدوان على مصر، وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ١٤٧– ١٤٨.

ومايكل فوت هو رئيس حزب العمال البريطاني من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٣، وله كتاب مشهور صدر عام ١٩٥٧ بعنوان "رجال مذنبون" يتضمن وجهة نظره في حرب السويس. وقد وصف تلك الحرب بأنها حرب إمبريالية ضد شعب كل جريمته أنه يسعى لنيل حقوقه

(١١٠) ناتنج، أنتوني: كيف أدار إيدن أزمة السويس، وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٢٨.

(١١١) Jernegan To Murphy, 16 August 1954, RG 59, 774. 13. see also Hart Byroade, 26 October 1954, and Caffery to Dulles, 6 November 1954, RG 59, 774. 5 M s p.

(١١٢) كايل، كيث: العمل المشترك بين أمريكا وبريطانيا لمواجهة عبد الناصر، وثائق ندوة الويس الدولية، ص ص ٣١٩ – ٣٢٠.

(١١٣) المصدر السابق، ص ص ٣٢٠ – ٣٢١.

(١١٤) المصدر السابق، ص ٣٢١.

(١١٥) Caffery to Dulles, 16 September and 27 November 1954, R G 59, 774. 5 M S P, Memorandum by operations Coordinating Board (hereinafter O C B) Working group, 21 December 1954 OCB. O 91. Egypt folder, OCB Central File Series. N S C staff papers, Dwight D. Eisenhower Library. Abilene. Kansas (hereinafter Eisenhower Library), and stevenson to Eden, 17 January 1955, Political Correspondence of the Foreign office. Fo 371/113608, JEIOS 7/1, P .R O.

(١١٦) حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٦٩.

(١١٧) كايل، كيث: العمل المشترك بين أمريكا وبريطانيا لمواجهة عبد الناصر، وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٣٣٦ – ٣٣٨.

(١١٨) Byroade to Dulles. 20 May and 9 June 1955, F R us 14 (1955 – 1957).

(١١٩) Progress Report on NSC 5428, 16 May 1956,R G 273 see also Progress Report on N S C 5428,2 November 1955. R G 273: Dulles to Macmillan, 5 December 1955.

(١٢٠) Dulles to Eisenhower, 28 March 1956, Whitman File: Diary Series. Box 13. see also memorandum of Conversation, 19 July

1956, and Byroade to Dulles, 26 July 1956. Frus 15 (1955 – 1957): 867 – 873, 906 – 908.

(١٢١) صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، ص ٢١٠ - ٢١٤.

(١٢٢) Memorandum of Conversation by Goodpaster, 31 July 1956, Whitman File: Diary Series. Box 16. see also Eden to Eisenhower, 27 July 1956, PREM 11/1098, Minutes of Meeting, 27 July 1956, Whitman File: Cabinet series, Box 7.

(١٢٣) Eisenhower to Eden, 3 September 1956. PREM 11/1100. see also Dulles to Murphy, 30 July 1956, and Dulles to Eisenhower, 2 August 1956, Whitman File: Dulles – Herter series, boz 5.

(١٢٤) محمد حسنين هيكل: كيف أدار جمال عبد الناصر أزمة معركة السويس، وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٤١.

(١٢٥) عبد اللطيف البغدادي: مذكراته، الجزء الأول، ص ص ٣٢٠ – ٣٢١، انظر كذلك عبد الحميد أبو بكر: أيام هزت الدنيا، ص ٢١.

(١٢٦) محمد حسنين هيكل: قصة السويس، شركة المطبوعات والتوزيع والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ بيروت، ص ص ١٢٧ – ١٢٨، انظر كذلك: Robertson, Terence. Crisis, P. 88.

(١٢٧) مقابلة مع علي صبري – نائب رئيس الجمهورية سابقًا – بمنزله يوم الأحد ٢٨ ديسمبر ١٩٨٦، انظر كذلك محمد حسنين هيكل: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٤٣-٤٤.

(١٢٨) وثائق المحفوظات العسكرية –غير منشورة– تقرير مخابرات حربية رقم ٦٥/١٥ مرفوع إلى الرئيس جمال عبد الناصر بتاريخ ٢٤ يوليو ١٩٥٦ عن حجم القوات الأنجلو فرنسية في شرق البحر الأبيض المتوسط وفي القواعد حول مصر وقبرص.

(١٢٩) مقابلة مع أمين هويدي بمنزله بمصر الجديدة يوم ٢٥ يونيو ٢٠٠٦، انظر كذلك مقابلة مع ثروت عكاشة بمنزله بالزمالك يوم ٢٨ يونيو ٢٠٠٦، مقابلة مع محمود رياض بمنزله بالزمالك يوم ٥ ديسمبر ١٩٩١.

(١٣٠) Love, Kennett. Suez the Twice – Fought War Ahistory, New York, 1969, PP. 118 – 119.

(١٣١) I lid, p. 122.

(١٣٢) Childers, Ereskine. The Road to Sues, London 1962, PP. 73 – 75.

(١٣٣) وثائق ندوة السويس الدولية – معركة السويس، ثلاثون عامًا، ص ٤٧، انظر كذلك دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢١٥.

(١٣٤) وثائق وزارة الخارجية المصرية – غير منشورة – مجموعة الوثائق يوليو ١٩٥٦– ديسمبر ١٩٥٧، رسالة الدكتور محمود فوزي إلى داج همر شولد بتاريخ ٢٤ أبريل ١٩٥٧، ص٣.

(١٣٥) المصدر السابق، ص ص ٧ – ٨.

(١٣٦) المصدر السابق، ص ص ٨ – ١٢.

(١٣٧) وثائق الخارجية المصرية، وثائق مجلس الأمن –جلسة مجلس الأمن يوم٢٦ أبريل ١٩٥٧، كلمة مندوب الولايات المتحدة الأمريكية.

(١٣٨) وثائق الخارجية المصرية، جلسة مجلس الأمن يوم ٢٦ أبريل ١٩٥٧، كلمة مندوب بريطانيا.

(١٣٩) المصدر السابق،كلمة مندوب فرنسا.

(١٤٠) المصدر السابق،كلمة مندوب الاتحاد السوفيتي.

(١٤١) المصدر السابق،جلسة مجلس الأمن يوم ٢٦ أبريل ١٩٥٧.

(١٤٢) صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، دار المعارف بمصر ١٩٧٠، ص ٣٣٩.

(١٤٣) المرجع السابق، نفس المكان.

(١٤٤) المرجع السابق، ص ص ٣٣٩ – ٣٤٠.

(١٤٥) المرجع السابق،ص ٣٤٠.

(١٤٦) محمد حسنين هيكل: وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٤٨.

(١٤٧) المصدر السابق، نفس المكان.

(١٤٨) المصدر السابق، نفس المكان.

(١٤٩) وثائق الخارجية المصرية – إدارة الصحافة، تقارير الصحافة العربية والعالمية خلال الفترة من ٢٦ يوليو وحتى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٦.

(١٥٠) المصدر السابق.

(١٥١) حسن البدري وفطين أحمد، حرب التواطؤ الثلاثي، ص ٦٧١.

(١٥٢) وثائق ندوة السويس الدولية، ص ص ٤٩ – ٥٠.

(١٥٣) ناتنج، أنتوني: ناصر– ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، ص ص ٢٣٠ – ٢٣١.

(١٥٤) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢٥٧.

(١٥٥) ناتنج، أنتوني: ناصر، ص ص ٢٣٢ – ٢٣٣.

(١٥٦) دوبوي، تريفور. ن: النصر المحير، ص ٢٤١.

(١٥٧) وثائق ندوة السويس الدولية، ص ٣٤.

(١٥٨) المصدر السابق، ص ص ٣٤ –٣٥.

(١٥٩) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث –قسم النشرات– سرى جـدًا، نـشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتـاريخ ٢٤ يونيه ١٩٥٧، ص ١٨.

(١٦٠) المصدر السابق، ص ص ٢٣ – ٢٤.

(١٦١) المصدر السابق، ص ص ٢٨ – ٢٩.

(١٦١) وثائق وزارة الخارجية – إدارة الأبحاث، قسم النشرات، سرى جدًا، نشرة خاصة عن العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتـاريخ ٢٨ مـارس ١٩٥٧. الجزء الثاني، ص ص ٢٥ – ٢٧، انظر كذلك مقابلة مع علي صبري بمنزله بمصر الجديدة سبق الإشارة إليها.

(١٦٢) المصدر السابق، ص ص ٣٢ – ٣٣.

(١٦٣) المصدر السابق، ص ص ٣٣ – ٣٥.

(١٦٤) عبد اللطيف البغدادي: مذكرات عبد اللطيف البغدادي – الجزء الأول، ص ٣٦٦.

(١٦٥) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث – قسم النشرات – سرى جـدًا، نـشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتـاريخ ٢٤ يونيه ١٩٥٧، ص ٨.

(١٦٧) المصدر السابق، نفس المكان.

(١٦٨) عبد اللطيف البغدادي، المصدر السابق، ص ص ٣٦٦ – ٣٦٧.

(١٦٩) Hughes, Emrys. Macmillan – portrait of a politician London 1961, PP. 35 – 36.

(١٧٠) I lid, P. 37.

(١٧١) I lid, PP. 40 - 42.

(١٧٢) I lid, P. 45.

(١٧٣) I lid, PP. 48 - 49.

(١٧٤) وثائق الخارجية المصري، مجموعة وثائق أزمة السويس – غير منشورة – قرار قطع العلاقات التجارية والاقتصادية مع فرنسا، انظر كذلك قرار الحكومة المصرية بوضع البنوك والشركات والمؤسسات الفرنسية تحت الحراسة.

(١٧٥) وثائق الخارجية المصرية، مجموعة وثائق أزمة السويس – غير منشورة – قرار إلغاء العقود الصناعية بين الحكومة المصرية والشركات الفرنسية.

(١٧٦) وثائق الخارجية المصرية، مجموعة وثائق أزمة السويس – غير منشورة– اتفاقية زيوريخ بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٩٥٨، انظر كذلك اتفاق بين الحكومة المصرية والشركة العالمية لقناة السويس بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٥٨.

(١٧٧) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث –قسم النشرات– سرى جدًا، نشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، صادرة بتاريخ ٢٤ يونيه ١٩٥٧، ص ص ١٠ – ١٢.

(١٧٨) المصدر السابق، ص ص ١٥ – ١٦.

(١٧٩) وثائق الخارجية المصرية، إدارة الأبحاث –قسم النشرات– سرى جدًا، نشرة خاصة عن نتائج العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على مصر، الجزء الأول، صادرة بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٥٦، ص ص ٣ – ٤.

المصـــــــادر

أولاً: الوثائق:

أ- الوثائق غير المنشورة

١- العربية:

- وثائق وزارة الخارجية المصرية: تمت الإشارة إليها في هـــوامش الدراسة.

- وثائق وزارة الحربية المصرية: تمت الإشارة إليها فـــي هـــوامش الدراسة.

٢- الأجنبية:

- National Security File, NSC History – Middle – East Crisis.
- National Security File – I sroel, Volume 12.
- Private Papers of John Foster Dulles.
- Dwight Eisenhower Library: Boz 1, 3, 5.
- United States. Department of State. United States Policy in the Middle East: September 1956 – June 1957 Washington, Aug, 1957.

ب- الوثائق المنشورة:

١- العربية:

- وزارة الخارجية المصرية، الكتاب الأبيض في تأميم شركة قناة السويس، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٦.

- مصلحة الاستعلامات، بيانات الرئيس جمال عبد الناصر في مجلس الأمة سنة ١٩٥٧، المجلد الأول والثاني – المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٥٧.

- وثائق الخارجية البريطانية التي أعدها مركز الخليج للبحوث والدراسات الاستراتيجية في لندن وعلق عليها وحللها سير أنتوني نـــاتنج ونـــشرتها جريدة الأهرام القاهرية خلال الفترة من ٢٥ ينـــاير ١٩٨٦ وحتـــى ١٢ أبريل ١٩٨٦.

- وثائق ندوة السويس الدولية – معركة السويس– ثلاثون عامًا، دار الشروق – الطبعة الأولى ١٩٨٩.

- وزارة الحربية، هيئة البحوث العسكرية، العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦.

٢- الأجنبية:

- The Suez Canal Problem, July 26 - September 22, 1956, New York 1956.
- Suez Canal Papers, Selected documents, London 1965.

- التقرير الرسمي للجنرال كيتلي عن العمليات الحربية ضد مصر – نوفمبر، ديسمبر ١٩٥٦. نشرته مجلة لندن جازيت في ملحق خاص بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٥٧. نقلاً عن وزارة الدفاع البريطاني. ترجم عن طريق المخابرات الحربية المصرية.

ثانيًا: المذكرات الشخصية:

أ- غير منشورة:

- أحمد حسين، مذكراته عن أزمة السويس.

- محمود فوزي، مذكراته عن أزمة السويس والعدوان الثلاثي على مصر.

- صلاح الموجي، مذكراته عن حرب العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦. والعميد صلاح الموجي كان يشغل إبان الحرب منصب رئيس أركان الجبهة.

ب- منشورة:

١- العربية:

- إيدن، أنتوني: مذكراته – جزءان، ترجمة خيري حماد – دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٠.

- أيزنهاور، دويت: مذكراته، ترجمة هيوبرت يونغمان، الطبعة الأولى ١٩٦٩.

- بن جوريون، ديفيد: إسرائيل تاريخ شخصي، إعداد مركز البحوث والمعلومات – المخابرات العامة المصرية.
- ثروت عكاشة: مذكراتي في السياسة والثقافة – جزءان، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٧.
- دايان، موشي: يوميات معركة سيناء، ترجمة المخابرات العامة ١٩٦٥.
- دايان، موشي: قصة حياتي، جزءان، الترجمة العربية رقم ٧٣٠ الهيئة العامة للاستعلامات.
- عبد اللطيف البغدادي – مذكراته، جزءان، المكتب المصري الحديث القاهرة ١٩٧٧.
- فتحي رضوان: ٧٢ شهرًا مع عبد الناصر – كتاب الحرية، دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر – العدد الثاني، القاهرة ١٩٨٥.
- محمود رياض: مذكراته، الجزء الثاني – الأمن القومي العربي بين الانحياز والفشل، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٦.
- محمود فوزي: حرب السويس ١٩٥٦، دار الشروق – الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- محمد حافظ إسماعيل: مذكراته – أمن مصر القومي، مطابع الأهرام، القاهرة ١٩٨٧.
- هرزوج، حاييم: الحروب العربية – الإسرائيلية ١٩٤٨ – ١٩٨٢، ترجمة بدر الرفاعي، سينا للنشر، الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٩٣.

٢- الأجنبية:

- Ben Gurion, D: years of challenge, London 1963.
- Ben Gurion, D: Apersonal History, New York, 1971.
- Dayan, Moshe. Diary of the Sinai Compaign, Harper and Row - New York, 1966.

- Dawan, Moshe. Story of My Life, London, 1971.
- Dulles, J.F. War or peace, United States, London 1957.
- Eden, Anthony. Full Circle, Cassel, London 1960.
- Eisenhower, Dwight. Waging Peace, Doubleday – New York, 1965.
- Lioyd, Selwyn. Suez 1956, London, 1978.
- Mahmoud Fawzi. The Suez War 1956, London, 1987.

ثالثًا: المقابلات الشخصية والمصادر الحية:

- أمين هويدي، مقابلات معه بمنزله بمصر الجديدة خلال شهر أغسطس ٢٠٠٦.
- ثروت عكاشة، مقابلة بمنزله يوم ٥ أغسطس ٢٠٠٦.
- حسن البدري، مقابلة بمنزله بمصر الجديدة يوم ١٥ مارس ١٩٩٦.
- علي بليغ صبري، مقابلات كثيرة معه خلال أشهر عام ١٩٨٩ وعام ١٩٩٠.
- عبد اللطيف البغدادي، مقابلات معه بمنزله بمدينة نصر خلال شهر مارس ٢٠٠١.
- محمود رياض، مقابلات معه خلال شهر يناير ١٩٩١ بمنزله بالزمالك.

رابعًا: الدوريات:

- الجمهورية: جريدة يومية قاهرية – الأعداد من يناير ١٩٥٥ وحتى نهاية ديسمبر ١٩٥٦. ثم أعداد متفرقة أعوام ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٦، ١٩٨٧، ١٩٨٨، ١٩٨٩، ٢٠٠٦.
- الأهرام: جريدة يومية قاهرية – الأعداد من يناير ١٩٥٣ وحتى نهاية يونيه ١٩٥٧. ثم أعداد متفرقة أعوام ١٩٨٥، ١٩٨٦، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ٢٠٠٢، ٢٠٠٦.

خامسًا: المؤلفات والبحوث والدراسات العلمية:

أ- العربية:

- أحمد حمروش: مصر والعسكريون، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٥٧.
- آزو، هنري: فخ السويس، ترجمة حسن إبراهيم – دار القاهرة للطباعة والنشر ١٩٦٦.
- أمين هويدي: حروب عبد الناصر، دار الموقف العربي، القاهرة ١٩٨٢.
- أمين هويدي: الفرص الضائعة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٢ بيروت.
- بارزوهار، ميشيل: حرب السويس، وزارة الإرشاد القومي – مصلحة الاستعلامات.
- بيريس، شيمون: معارك السلام – مذكرات منذ مولد إسرائيل حتى صراع السلام، ترجمة المخابرات العامة – القاهرة ١٩٩٥.
- حلمي سلام: أنا وثوار يوليو، دار المعارف – القاهرة ١٩٨٢.
- حسن البدري وفطين أحمد: حرب التواطؤ الثلاثي، المكتبة الأكاديمية – القاهرة ١٩٩٦.
- صلاح بسيوني: مصر وأزمة السويس، دار المعارف بمصر ١٩٧٠.
- محمد حسنين هيكل: قصة السويس، شركة المطبوعات والتوزيع والنشر، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ بيروت.
- محمد حسنين هيكل: ملفات السويس، مطابع الأهرام ١٩٨٧.
- ناتنج، أنتوني: ناصر – ترجمة شاكر إبراهيم، دار مكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٩٨٥ بيروت.

- نانتج، أنتوني: درس لا نهاية له.. قصة السويس، مصلحة الاستعلامات، الترجمة العربية رقم ٥٩٠.
- نيف، دونالد: حرب السويس، ترجمة أحمد خضر وعبد السلام رضوان، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٩.
- هيوز، أيمري: ماكملان شخصية سياسية، ترجمة حسين الحوت، مختارات الإذاعة والتليفزيون، بدون.
- وأيزمان، عيزر: على أجنحة النسور، ترجمة المخابرات العامة، القاهرة ١٩٦٦.

ب- الأجنبية:

- Barker, A.J. Suez the Seven Day War, London 1969.
- Childers, Ereskine. The Road to Suez, London 1962.
- Clark, D.M.J. Suez Touchoown, London, 1964.
- Dupuy, Trevor N. Elusive Victory, London. 1978.
- Finer, Herman. Dulles Over Suez, London, 1964.
- Kimche, Jon and David. Both Sides of the Hill, London, 1960.
- Love, Kennett. Suez the Twice – Faught War A history, New York, 1969.
- Nutting, Anthony. The story of Suez, No end of a lesson, London, 1978.
- Nadav, Safran. From War to War, New York, 1963.
- Oballance, Edgar. The Sinai Compaign 1956, London, 1959.
- Robertson, Terence. Crisis, London, 1964.